المشروع الحضاري
لدعوة
الإحياء الإسلامي

يقدمه

جمال البنا

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ شارع الجيش ـ ١١٢٧١ القاهرة
هاتف وفاكس ٢٥٩٣٦٤٩٤

E-mail : gamal_albanna@yahoo.com
gamal_albanna@infinity.com.eg
www.islamiccall.org



ملخص

إذا كنت لا تستطيع أن تقرأ الرسالة ، فيمكن أن تقرأ هذا الملخص لتأخذ فكرة عن الموضوع ، وسيأخذك لتقرأ الموضوع .

– I –

ينطلق مشروع الإحياء الإسلامي ، ويتمحور حول فكرة رئيسية هي "الإنسان المستخلف" ، فقد شاءت إرادة الله أن يجعل الإنسان خليفة لـه على الأرض ، وفي دين كالإسلام صارم في التوحيد فإن هذا يكون أعظم تكريم يمكن الوصول إليه ، كما يلحظ أن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم ، في حين أن لا سجود في الإسلام إلا لله .

لهذا خلق الله الإنسان ، كما خلق الأرض ، بصورة مميزة ليكونا مجلي الله ومشيئته في الكون ، فخلق آدم من طين إشارة لارتباطه بالأرض ، ثم نفخ فيه من روحه فوهبه الضمير والوعي والإرادة ثم علمه الأسماء كلها ، وهو تعبير عن تملك الإنسان لمفاتيح المعرفة ، كما خلق الأرض كوكبًا مميزًا بين ملايين الكواكب فجعل مناخها محتملاً ، وشق فيها البحار والأنهار ، وبسط السهول والجبال ، واختزن في جوفها المعادن ، وأوجد على سطحها الحيوان والغابات والنبات ، ليكفل للإنسان حاجته من المأكل والمسكن والملبس .

وأنزل الإسلام ليهـدي هذا الإنسان المستخلف ، فالإسلام ـ كائناً ما كان ـ وسيلة ، أما الغاية فهو الإنسان .

– II –

فهم الرسول جيدًا هذا فأقام على الأرض ، في المدينة ، مجتمعًا يحقق للإنسان العزة والكرامة وأرسى القيم التي تؤدي إلى هذا ، وكان أبرزها المساواة ، فكل المسلمين عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم كأسنان المشط ،

ولا يعلو أي واحد على القانون ، فالرسول نفسه قبل القصاص منه ، والرجال والنساء ، والفقراء والأغنياء سواء في الحقوق والواجبات ، كما وضع نظامًا يكفل الأمن والأمان للجميع ويبعد الخوف ، فلم يكن في المدينة بوليس ولا سجون ، كما كفل الأمن الغذائي وما تتطلبه المعيشة بسن الزكاة والتكافل الاقتصادي فحقق إسلام الإنسان .

نعم أننا لا نجد في هذا المجتمع إشارات إلى حقوق الإنسان لسبب بسيط هو أن النظام بأسره قام أصلاً للإنسان ، فذكر حقوق الإنسان فضول وعلى كل حال فإن لكل عصر لغته واصطلاحاته وما يركز عليه من قيم أو شعارات . المهم أن مضمون الحكم للإنسان كخليفة وتنظيم المجتمع الذي يحقق ذلك بتقرير المساواة والأمن والكفاية كان محققاً بالفعل .

- III -

لم يستمر مجتمع المدينة وإسلام الإنسان سوى ربع قرن تقريبًا ، وعندما طعن عمر بن الخطاب ، طعن هذا المجتمع ، وبدأت الفتن والقلاقل مع انحراف عثمان عن سُنة الشيخين ، واحتدام الخلاف فقتل عثمان وهو يقرأ القرآن وتدفع عنه زوجته حتى بترت السيوف أناملها ، وقامت حرب عنيفة حول هودج السيدة عائشة ما بين الذين يوجهون سهامهم إليه والذين يدافعون عنه ، ثم أخذ نصف المسلمين يحارب النصف الآخر في صفين ، وقتل علي بن أبي طالب الذي أراد إعادة مجتمع المدينة ، وختمت الحقبة سنة ٤٠ هـ بتحويل معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض لا يختلف عن أي ملك كسروي أو قيصري فهو وراثي سلطوي مستبد ، ومن هذا التاريخ ، واستمر هذا الحكم السلطوي الفاسد حتى أنهى مصطفى كمال الخلافة سنة ١٩٢٤ .

- IV -

يعود هذا الانتكاس إلى أسباب عديدة ، منها فساد نظام الحكم الذي أشرنا إليه آنفاً ، وأن الانتصار السريع للإسلام على ممالك طبقية شائخة أدخل في المجتمع الإسلامي الملايين من أفراد هذه الممالك ، ودخلوا في الإسلام لبساطته وسماحته ، ولأن هذا الدخول يفتح الطريق أمامهم إلى المراكز ، واستطاعوا بحكم ذكائهم أن يتولوا التفسير والحديث والفقه واللغة .. الخ

ولكنهم وقد كانوا حديثي العهد بالإسلام طرحوا مفاهيم وراثاتهم الحضارية على الإسلام ، فبعدوا به عن روحه الأصيل ، الحر ، البسيط ، وكان المجتمع الإسلامي يموج بملل ونحل ومذاهب عديدة ، وأضيف إليها آثار ترجمة الفلسفة اليونانية التي تأثر بها الفقه الإسلامي في مراحله الوسطى (الحكم العباسي) .

ولم يخل الأمر من كيد دفين للإسلام .

– V –

مع توالي القرون تبلور ''إسلام السلطان'' في الفكر السلفي الذي سيطر على منظومة المعرفة الإسلامية ، خاصة بعد إغلاق باب الاجتهاد في القرن الخامس ، وأصبح هو المقرر أو كما يقولون ''إسلام السُنة والجماعة'' واكتسب أئمته وقادته قداسة ، وظل الأمر كذلك حتى مشارف العصر عندما بدأت اليقظة الإسلامية .

– VI –

لم تستطع اليقظة الإسلامية التي بدأت مع جمال الأفغاني ومن عاصره وزامله أن تقضي على الفكر السلفي ، لأن قوة جديدة كانت قد فرضت نفسها على العالم الإسلامي هي الاستعمار الأوروبي ومحاولته طمس الإسلام والعربية في عديد من الأقطار فتركزت الجهود للقضاء عليه ، وأصبح ذلك هو الشغل الشاغل ، وشغلوا به عن قضية تجديد التنظير الإسلامي فانفسح المجال للمؤسسات الدينية التي أخذت في الظهور واحتكرت تمثيل الإسلام ، كما أن الانتلجنسيا في الدول الإسلامية لم تسهم بدور في هذا المجال لأن بعضهم آمن بنظريات مجافية للإسلام كالاشتراكية والقومية ولم يكن لدي معظمها الإحكام الفني للموضوع ، ولأن الحكومات وكلت إليهم المناصب خاصة في الإعلام فاصبحوا يسبحون بحمدها .

وهكذا كان على دعوة الإحياء أن تقوم بمهمة التجديد الإسلامي الجذري وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية ، وكانت دعوة الإحيــاء مهيئة لذلك ، ففي سنة ١٩٤٦ أصدر داعيتها جمال البنا كتاب ''ديمقراطية جديدة'' وخصص فيه فصلاً عن ''فهم جديد للدين'' وجه فيه الحديث للإخوان المسلمين الذين كانوا قد وصلوا إلى الأوج ''لا تؤمنوا بالإيمان ولكن آمنوا

بالإنسان" ، وظلت فكرة "إسلام الإنسان" طوال خمسين عامًا تختمر وتتطور ولم يعلن عنها إلا سنة ٢٠٠٠ ، لمناسبة صدور الجزء الثالث من كتاب "نحو فقه جديد" .

وكانت الخطوة الأولى هي إبراز المبدأ المحوري مبدأ "الإنسان المستخلف" ، والبرهنة عليه بدلائل من القرآن الكريم ، وأن الرسول طبقه بالفعل في الفترة القصيرة التي حكم فيها وخلفه أبو بكر وعمر بحيث كان مجتمع المدينة مجتمعًا إنسانيًا بمعنى الكلمة تسوده المساواة ويكفل للفرد الأمن والأمان .

ووضحت دعوة الإحياء كيف أن هذا المجتمع انتهى تمامًا سنة ٤٠ هجرية عندما حول معاوية بن بي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض ، وأن ما أطلق عليها الخلافة التي استمرت حتى ألغاها مصطفى كمال في تركيا ، لم تكن خلافة ، ولكن حكمًا سلطويًا وراثيًا مستبدًا للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً وكان إسلامها إسلام السلطان .

تريد دعوة الإحياء العودة مرة أخرى إلى إسلام الإنسان وترى أن روح العصر الحديث تساعد على ذلك ، وهي ترى ضرورة إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية على أسس "إسلام الإنسان وليس إنسان السلطان" ، ووضعت مجموعة من الكتب تفتح الطريق لذلك وتشرح أسس التأسيس الجديد والمبادئ التي يقوم عليها .

وتضمنت المراجع التي وضعتها الدعوة أكثر من ثلاثين كتابًا كبيرًا تعالج كل جوانب القضية الإسلامية (السياسة ، المرأة ، حرية الفكر والعقيدة ، الدعوات الإسلامية المعاصرة ، الفقه ، التفسير ، الحديث) .. الخ .

-VII-

المبادئ العملية التي تمخض عنها المشروع ، وكلها من صميم ما جاء في القرآن وهي :

(١) الإنسان المستخلف هو الغاية التي جاء لها الإسلام ، فالإنسان هو الغاية ، والإسلام هو الوسيلة .

(٢) المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس جميعًا ، وبلا استثناء هي أساس مجتمع الإنسان المستخلف .

(٣) العقل ، وما ينشأ عنه من علم ومعرفة هو ما يميز الإنسان وما جعل الله تعالى الملائكة تسجد له ، ولهذا فإن العقل أساس النظر الديني ، ولا شيء يستعصي عليه سوى ذات الله وطبيعته والعالم الآخر .
ويستتبع هذا إشاعة العلم والمعرفة في المجتمع .

(٤) العودة إلى القرآن الكريم واعتباره كتاب هداية واستبعاد كل التفاسير وكل ما جاء به المفسرون من نسخ أو أسباب نزول ، إن الصياغة القرآنية فيها قوة الهداية والقرآن يؤتي أثره بالانطباع .

(٥) السُنة يجب أن تضبط بضوابط القرآن ، وليس لها تأبيد القرآن .

(٦) اعتبار "الحكمة" أصلاً من أصول الإسلام .

(٧) اعتبار الزكاة فريضة مقدسة كالصلاة وتنظيمها بحيث تؤدي دور "الضمان الاجتماعي والتأمين" .

(٨) كل ما جاءت به الشريعة من أحكام عن الدنيويات ، وسواء كانت في القرآن أو السنة إنما أنزلت لعلة هي بصفة عامة العدل والمصلحة ، فإذا حدث أن جعل التطور الحكم لا يحقق العلة (أي العدل والمصلحة) عدلنا في الحكم بما يحقق الغاية ، وهو ما اهتدى إليه عمر بن الخطاب في اجتهاداته المعروفة .

(٩) مجاوزة السلفية وعدم الاعتداد بها ، فالسلفية هي الماضوية ولا نستطيع أن نعيش حاضرنا في ماضينا .

(١٠) استبعاد فكرة أن الإسلام يسيطر على كل شيء ، أن الإسلام على أهميته القصوى ليس إلا بُعدًا واحدًا من أبعاد متعددة للحقيقة كالعلوم والفنون والآداب والفلسفة التي تنطلق كل من منطلقها الخاص ، وتقدم عطاءها الذي وإن اختلف عن عطاء الدين ، فإنه لا يزاحمه ، كما لا يستبعده الدين .

(١١) حرية الفكر والاعتقاد مطلقة والعلاقة ما بين الأديان هي علاقة تعايش .

(١٢) تحرير المرأة من الدونية التي جاءت بها بضعة أحاديث ضعيفة أو موضوعة ، وتقرير مساواتها بالرجل .

- ١ -

دعوة الإحياء تستكشف الإسلام

ليست دعوة الإحياء الإسلامي أشهر الدعوات الإسـلامية أو أكثرها جمهورًا ، وليس لها مشـاركة في ما يجتر من كتابات عن الفكر السـلفي الإسلامي ، وهو الفكر الإسلامي المقرر الذي يتبعه الفقهاء والمفكرون والدعوات الإسلامية ، ولم يكن جمال البنا داعيتها رجلاً من رجال الدين فلم يطأ الأزهر بقدمه يومًا ، ولم يضع عمامة أو يطلق لحية ، ولم يؤمن بالإسلام بحكم الوراثة ، مع أنه من أسرة نابهة ذات أثر مدوي في خدمة الإسلام ، إلا أنه آمن بالإسلام لأنه وجد الإسلام يتفق مع القيم والمثل التي يؤمن بها من حرية وعدالة وحب وخير وعلم ومعرفة ومساواة ورأى في الإيمان بالله حلاً لمشكلة غائية الوجود تطمئن إليه النفس ، ويتقبله العقل وينفي الاغتراب ، ورأى في الأنبياء أفضل المثل لقادة يعملون لهداية الجماهير ولإخراجها من الظلمات إلى النور ، لا يريدون جاهًا ولا يأخذون أجرًا ، ولا يحيطون أنفسهم بحرس ، أو يقيمون في قصور ، وإنما يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، فآمن بالإسلام ، ولم يكن ليؤمن هذا الإيمان لولا أن دراساته في نشأة وتطور الحضارات وظهور الحركات الشعبية ، كالحركة النقابية ، والحركة الاشتراكية والحركة النسوية ، وإنعام النظر في النظم السياسية وكيف تحولت من الحكم الملكي المؤلـه إلى حكم الشعب المحرر وكذلك دراساته في الفنـون والآداب ودورها في تهذيب المشاعر ، وتغذية العواطف وتجميل الحياة ، بل وفي تقدم المجتمع أن رواية "بيت الدمية" لا يسن كان بداية لتحرير المرأة وكتاب "كوخ العم توم" كان دعوة لتحرير العبيد .

كانت هذه الروافد الثقافية/الحضارية تتلاقى في ذهن جمال البنا وتتفاعل طوال ستين سنة وتنضج على نار هادئة ، ومع تقليب وتفكير مستمر يبعد عنها ما يشذ منها بحيث تصبح سبيكة تتمحور حول الإنسان ، وأنه يجب أن يكون غاية كل دعوة ، ومن هذا المنطلق المختلف شيئاً ما عن

الإسلام نظر جمال البنـا إلى الإسلام فرآه ككل ، دعوة هداية تستهدف الإنسان ، ولو أنه كان أحد المتخصصين أو أحد شيوخ الأزهر لما رآه كذلك ، لأننا لا نرى الكل إذا كنا جزءً منه ، ولو أنك دخلت غابة ، فإنك لن ترى الغابة ولكن الأشجار ، ولو كنت فردًا في صورة مع آخرين ، لما استطعت أن ترى الصورة ، وإنما من جوارك فلا يمكن أن ترى الغابة أو الصورة إلا إذا كنت بعيدًا عنهما ، عندئذ يمكن أن تراهما ككل .

وهكذا استطاع جمال البنا أن يقدم رؤية للإسلام تختلف بل تتعارض مع الفكرة التقليدية ، وظهر هذا جليًا في كتاب "ديمقراطية جديدة" الذي ظهر عام ١٩٤٦ ، وتضمن فصلاً بعنوان "نحو فهم جديد" ووجه الحديث للإخوان المسلمين الذين كانوا قد وصلوا للأوج وكانت شعاراتهم المعروفة " الله غايتنا .. الرسول زعيمنا .. القرآن دستورنا" .. الخ تتعالى ، فقال "لا تؤمنوا بالإيمان ، ولكن آمنوا بالإنسان" ، وعرض فكرة الفقيه نجم الدين الطوفي في القرن الثامن الهجري عن المصلحة ، وأنها المقصد الأسمى للشارع ، فإذا وجد نص يخالف المصلحة أخذنا بالمصلحة وأولنا النص .

أن فكرة دعوة الإحياء عبرت عن نفسها من سنة ١٩٤٦ ، أي منذ ستين عامًا ، ومع هذا لم تعلن عن نفسها إلا سنة ٢٠٠٠ بعد صدور مجلد "نحو فقه جديد" ، ولم يضق جمال البنـا بأن تظل الدعـوة حبيسة في نفسه طوال هذه المدة لأنه رجل فكر ، فكانت تعيش معه قدر ما كان يعيش معها ولم يحس حاجة لأن تظهر إلا عندما جاء الوقت الذي استكمل فيه هذا الجنين "العجوز" أعضاءه ، فانزلق في مخاض طبيعي تطلبته الأجواء والظروف .

وكان من حسنات ذلك أنها مكنت الداعية من أن ينظر طويلاً ـ ويعيد النظر وسمحت للتطور الفكري أن يصاحب الفكرة ـ بحيث يضيف ويشطب ويعدل ، وأن تتطور الدعوة تحت نار هادئة حتى اللحظة الأخيرة عندما نضجت ، ونجت من الأفكار الفطيرة ، أو البراقة ، ولم يبق إلا على ما أكد التطور صحته .

وكان من العوامل التي مكنت دعوة الإحياء الإسلامي أن تصدع بدعوتها أن داعيتها كان من شبابه مستقلاً تمام الاستقلال عن كل المعسكرات ، والنظم الحاكمة ، والهيئات والأحزاب ، حتى عن الإخوان المسلمين التي ربطت بينه وشيجة الأخوة الشقيقة بمرشدها العام المؤسس ، لقد عاشت دعوة الإحياء حياتها في عالمها الخاص واعتمدت على جهدها وأصالتها ، لا على علاقاتها أو معونات الآخرين ، كما لم يكن داعيتها في يوم من الأيام موظفاً تحكمه ضرورات الوظيفة أو عضوًا في حزب أو مرتبطًا بنظام ، أو مشتغلاً بأعمال تجارية ، فقد آثر أن يعيش عيشة الكفاف حتى لا تضطره مقتضيات "الحياة البرجوازية" إلى تنازل أو يكون لها عليه أي تأثير ، ولم يملك شقة أو بيت أو سيارة أو حساب خاص في البنك ، وكان العامل الذي غير هذا الوضع هو مناصرة شقيقته السيدة فوزية رحمها الله عام ١٩٩٥ للفكرة وتبرعها بالجزء الأعظم من ثروتها التي كونتها من عملها لأربعين سنة في تعليم البنات في السعودية لتكوين "مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي" كهيئة لها وضع قانوني (سجلت بمقتضى القانون التجاري كشركة توصية) تمول نشاط دعوة الإحياء ووضع المبلغ كوديعة في أحد البنوك يصرف من عائدها ، مع الاحتفاظ بالأصل ، وعندما توفيت سنة ١٩٩٧ آلت بقية ثروتها إلى شقيقها الذي ضمها إلى مالية المؤسسة وبهذا وحده استطاعت الدعـوة أن تنطلق من ١٩٩٧ حتى الآن في إصدار عدد كبير من الكتب ، وأن تجد نفسها في غير حاجة إلى تمويل من آخرين .

وهذا التجرد والتحرر من الالتزامات التي تلجم الأفواه وتثقل الأقدام هو سر القوة التي تتحدث بها دعوة الإحياء الإسلامي ، وأنها في معالجتها الصريحة للحقيقة لم تدخر أحدًا ، ولم تخش لومة لائم ، ولم يكن أمامها ما يوقفها ، ولم يكن لديها ما تفقده فانطلقت بكل جرأة وأضفى عليها التحام داعيتها بالجماهير بوجه خاص خلال مرحلته النقابية طابعًا إنسانيًا ، وهذا الاستقلال هو في الوقت نفسه الذي جر عليها العداوات وأثار ضيق "الشلل" التي تهيمن على الإعلام والمؤسسات الدينية ، وجعلها تتجاهله وتجعل سياستها التعتيم الإعلامي .

- ٢ -

إسلام الإنسان

القضية المحورية في الإسلام ، والتي يكون منها المنطلق ، هي أن الله تعالى أراد أن يجعل الإنسان خليفة لـه على الأرض ، ووضع العوامل التي تحقق هذه المشيئة أفضل تحقيق سواء كان ذلك بالنسبة للزمان والمكان ، أي الوقت الذي يأتي بعد اليهودية والمسيحية ، ويكون بمثابة النهاية لمسيرة البشرية كما أراد للإسلام أن يظهر في صحراء العرب على وجه التعيين ، وجعل الطبيعة الإنسانية ، وطبيعة الإسلام تتلاقيان في الوقت والمكان المعينين ، وبالتالي فإن كل الخيوط تتلاقى في العوامل وتتفاعل لتحقيق المشيئة الإلهية التي تتبلور في "إسلام الإنسان" الذي مَثَّل الأساس النظري والكيان العملي لخلافة الإنسان "إسلام الإنسان" .

جاء الإسلام بعد أن مضت ستة قرون على المسيحية ، وبعد أن طال الجدل حول طبيعة الأقانيم الثلاثة وعلاقتها ببعضها ، وبعد أن توصلت الكنيسة إلى وجود قوي وبارز دون أن تحل المشكلة اللاهوتية للأقانيم ، وما كان يمكن لهذه الافتراضات اللاهوتية أن تحل إلا بظهور الإسلام الذي يقدم رؤيته عن "الله" .

وظهر الإسلام في شبه جزيرة العرب حيث تنبسط الصحـراء كالبحر وتنطلق الرياح كالعواصف ، وبين أقوام لم يكدحوا بأيديهم في الأرض ، ولم يحملوا على ظهورهم الحجر، مما شغل حياة الناس في العهود القديمة ، ولم تذل رقابهم لملك أو إمبراطور ، ولم يخضعوا لمران النظـم وضبطها وربطها ، كانوا أحراراً يعيشون عيشة البداوة وتحكمهم الفطرة أو العرف ، ويعيشون في خيام أو في بيوت ساذجة ويتحملون الحر اللافح نهاراً والبرد القارص ليلاً ، ويعبدون آلهة من صنعهم فما كانت تملك تحريماً أو تحليلاً أو تفرض قداسة أو "تابو" من أي نوع ، ولم يكن لديهم ميثولوجيا كالميثولوجيا اليونانية ، أو الميثولوجيا العبرية (وهى التوراة وما أضيف

إليها من أساطير وروايات) ، تثقل كاهلهم وتعقد أفهامهم ، كانوا مثل "الفايكنج" لديهم الجرأة ، والشجاعة ، والثقة في النفس ، والإقدام .

وكان البساط الأصفر المترامي للصحراء ، والرياح المنطلقة دون ما يصدها من جبال تمثل أبرز خصيصتين لهذا المجتمع : المساواة والحرية ، فلم يعرف المجتمع العربي القديم النظم الطبقية ، ولا الألقاب الوراثية ، ولا الحواجز ما بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا ، التي كانت مألوفة في الإمبراطورية الرومانية ، والفارسية ، وواصلت البقاء حتى الثورة الفرنسية وظلت بقاياها حتى الآن في بعض المجتمعات التي تحمل أرستقراطيتها الألقاب الموروثة ، إن العرب لم يعرفوا الأرستقراطية المقننة حتى عندما وصلوا إلى المرحلة الإمبراطورية ، فالحضارات القديمة لم تستطع أن تخترق أساس المساواة الذي غرسته البادية وعززه الإسلام .

يماثل هذا أيضًا عدم وجود كنيسة في الوثنية العربية الساذجة ، ولا لاهوت ، ولا مؤسسة دينية يكون لرجالها درجات ومراتب وأزياء وتنظيم كهنوتي وحقوق في التحريم والتحليل .

وكانت البيئة الصحراوية البدوية الساذجة قد استغنت عن الألقاب بالكنية ، أي يحمل الأب اسم الابن الأكبر ، فيقال أبو فلان "وأم فلانة" .

كانت آثار التاريخ والجغرافيا على المجتمع العربي تجعل هذا المجتمع إنسانيًا بطريقته الخاصة بحيث تأخذ القبيلة شكلاً جماعيًا هو أقدر التنظيمات الجماعية على تحقيق فكرة الديمقراطية عن حكم الشعب بنفسه ، فلم يكن هناك قانون مؤله ، ولا حكومة مركزية ، ولم يكن غريبًا ـن تحقق ـ بطريقته الخاصة ـ نوعًا من الديمقراطية .

وهكذا نرى أن هذا العامل ـ التاريخي الجغرافي ـ يميل في اتجاه يجعله يتجاوب مع عامل آخر ، هو تصور الإسلام لطبيعة الإنسان .

كيف تصور الإسلام الطبيعة البشرية ؟

أن القرآن الكريم عندما عالج قضية الخلق ، لم يسلك مسلك التوراة فيتحدث عما خلقه في كل يوم من الأيام الستة حتى جاء اليوم السابع فيعطيه إجازة وراحة ، أنه عندما أشار إلى خلق السموات والأرض تحدث عنها باعتبارها دليلاً على وجود الله والإيمان به ، ولأنها على روعتها فهناك ما هو أكثر روعة هو الإنسان الذي بعد أن تحدث عن طريقة خلقه ـ كما سنشير إليها لاحقاً ـ تابع الحديث عنه في كل صفحات المصحف بحيث يمكن القول أن القرآن كتاب يتحدث عن الإنسان في شبابه وشيخوخته ، في غناه وفقره ، في أمله ويأسه ، في صحته ومرضه ، في استشرافه للهدي واستسلامه للشهوة ، فهو في حقيقته كتاب عن الإنسان .

وعندما أشار إلى خلق آدم اختلفت رواية القرآن عن رواية التوراة ، فقد خلقه الله من طين لازب فأعطاه الطبيعة الأرضية ونفخ فيه من روحه فأعطاه العقل ، والضمير ، والوعي ، والإرادة ، ثم علمه الأسماء ، وهو لا يسلك مسلك التوراة في تحديد الأشياء وأسمائها لآدم ، ولكن يقول "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا" باعتبار أنها مفاتيح المعرفة ، بعد هذا قرر أن يجعل الإنسان خليفة له في الأرض ، ولما أعربت الملائكة عن دهشتها ، أجرى بين آدم وبين الملائكة مناظرة ، تميز فيها آدم على الملائكة بفضل معرفته الأسماء ، وأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا "إبليس" وهو الشخصية التي يرمز بها الإسلام للشر ، ولإغواء آدم ، وتكريم للإنسان في دين يقوم على التوحيد الصلب لله يكون أعظم تكريم يقدمه هو أن يوجد خليفة لله .

ولكن الطبيعة البشرية معقدة ومركبة ، تتلاقى فيها الأضداد ، فقد ورثت عن أصلها الطيني غرائز مادية ، وأنانية تجعلها تميل للشهوات من مال ، أو جاه ، أو نساء ، أو نفوذ ، أو سلطان ، كما ورثت من نفخة الله الضمير ، والوعي ، والإرادة ، كما أنها بفضل تهيئة الله تعالى عندما "علمها الأسماء كلها" أي وضع في يدها مفاتيح المعرفة بحيث يمكن أن ترتاد عالم العلم العجيب وما يتيحه لها من إمكانيات .

كانت الطبيعة البشرية كالنفط ، فيه القار الثقيل الذي يستخدم لرصف الطرق ووظيفته أن يوطأ بالأقدام وهو مفيد لأن هذه وظيفة نافعة ومطلوبة ، ومنه البنزين الخفيف الذي تطير به الطائرات ، وما بين القار التقبل والبنزين الخفيف تروح وتجئ النفس البشرية بين نجدين من خير وشر ، فجور وتقوى ، وإيثار وأثرة .

وأراد الله تعالى أن يختبرها ، فسلط عليها الشيطان ، وأعطى هذا الشيطان "شيك على بياض" لخداع الإنسان وتضليله وصرح له باستخدام كل قدراته الفائقة التي يتميز بها عن الإنسان ، وأن يستمر في أداء دوره حتى يوم الساعة ، فطرح على الطبيعة الإنسانية قسمة جهادية ، وجعل الحياة مجالاً فسيحًا يعرض فيه القوي قوته ويكشف فيها الضعيف ضعفه ، ووضع نظامًا للثواب والعقاب في الحياة الآخرة ، كما أنه أعانها بأمرين عظيمين هداية الأديان من ناحية وقيادة الأنبياء القيادة الرشيدة التي لا تتوفر إلا عند الأنبياء .

ولكن الطبيعة البشرية رغم هذا ، وبحكم النفخة الإلهية فيها توق للإيمان وإحساس مبهم بوجود الله ، وقدرة ما على التمييز ما بين الخير والشر ، والإسلام يطلق على هذه الملكة "الفطرة" التي يولد بها كل الأطفال حتى يتولى الأبوان توجيه هذه النزعة الإيمانية إلى الدين السائد "يهودية ، أو مسيحية ، أو بوذية" .. الخ .

وأخيرًا لنأت إلى طبيعة الإسلام التي أرادها الله لـه ليمكن للإنسان ممارسة المسئولية العظمى ، خلافة الله على الأرض وتطبيق "إسلام الإنسان" .

كان على طبيعة الإسلام هذه أن تتلاءم مع مقتضيات ممارسة مسئولية الخلافة خاصة وقد هيئ الله تعالى الزمان والمكان والطبيعة البشرية لتقبل ذلك ، وبقي أن تأتي طبيعة الإسلام سائرة في الاتجاه نفسه .

وعندما قال الرسول أن الإسلام دين الفطرة فإنه صرح بأن الإسلام دين الإنسان، وأنه إنما جاء لدعم هذا الإنسان وتحقيق سيادته على الأرض .

وتجاوب الإسلام مع خصيصة الطبيعة الصحراوية : المساواة والحرية ، فرفض كل ما أقامته النظم الكسروية والقيصرية من أوضاع طبقية ترفع القوي فوق الضعيف ، الغني فوق الفقير ، والحاكم فوق المحكوم ، وسوى ما بين البشرية كلها لأنه يتحدث عن "بني آدم" سواء منه الأبيض والأسود ، الرجل والمرأة ، الحر والعبد ، وجعل الأولوية للصلاحية "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" .

ونتيجة لأن الإسلام دين الفطرة ، فلم يجد الإسلام حاجة لإجراء يثبت به "إسلامية" الإنسان ، كان يعمد المولود في الماء حتى يكتسب الخلاص ، ورأى أن المولود الذي يولد على الفطرة سيكون مسلمًا حتى يتولى أبواه تنصيره أو تهويده بما يضعان من طقوس ، ومن هذا المنطلق – منطلق الفطرة – لم يتقبل الإسلام كدين فكرة "الرهبنة" والابتعاد عن عالم الحياة الدنيا ، والتخلص من الثروة والالتزام بالعفة ، أي عدم المخالطة الجنسية حتى لو كانت بين الزوجين ، وقال الرسول "لا رهبانية في الإسلام" ، ورأى أن رهبانية الإسلام هي الجهاد لمقاومة الاستسلام للشهوات الجامحة وليس مقاومة الالتزام بما توحي به الفطرة والطبيعة البشرية التي لا يمكن أن تتنكر أو تتجاهل أقوى الغرائز- الغريزة الجنسية - ومن ثم جاء حرصه على الزواج – الذي يكفل قضاء ما تتطلبه حياة الإنسان ، وقد رفض الرسول مسلك مجموعة ارتأت أن تقوم الليل ، وتصوم النهار، ولا تقرب النساء ورأى أن هذا يخالف الفطرة ، ولا يعد من سُنة النبي الذي كان يصوم ويفطر، وينام ويصلى ، ويتزوج ، ويقر الملكية .

ويماثل ذلك أيضًا عدم وجود الكنيسة أو المؤسسة الدينية والتي يكون لرجالها درجات ومراتب وأزياء وتنظيم كهنوتي وحقوق في التحليل والتحريم ، إن الإسلام يكاد يكون في هذه كلها "علمانيًا" أو مدنيًا فالمسجد أرض فضاء ، والصلاة يمارسها كل واحد في بيته أو حقله ، وأي واحد يحفظ شيئاً من القرآن يمكن أن يكون إماما ، والعلاقة بين المؤمن والله مباشرة لا يمكن لأحد أن يتدخل فيها ، ويظل المجتمع الإسلامي مجتمعاً

مفتوحاً ، وكانت صفات المقدرة والجدارة هي التي تعلى الأفراد ، كما كان العلم والفقه مفتوحاً للجميع ويمكن لفرد من أقل الطبقات أن يصل بفضله إلى أعلى المناصب ، كما فعل "الموالى" أما التجارة والحرف فكانت هي الأخرى حرة .

وقبل الإسلام طريقة العرب في الكنية بدءً من الرسول حتى الخلفاء ، وسهل هذا على الإسلام أن يعمق روح الأخوة ، وأن يصطنع لقب "أخ" ليحمله المؤمنون تطبيقاً لما قاله القرآن "إنما المؤمنون أخوة" ، ولما قاله الرسول عن المؤمنين إنهم كالجسد الواحد ، وكأسنان المشط ، وإذا كان المجتمع السوفيتي قد توصل في العصور الحديثة إلى لقب "رفيق" ليحمله أفراد هذا المجتمع وتوصل المجتمع الأوروبي الحديث إلى لقب "سيد" ، فإن الإسلام قد سبقهم عندما أبدع لقب "الأخ" وساد هذا في المجتمع الإسلامي حتى اليوم .

وكانت قوانين الميراث الإسلامية تفتت الملكية بحيث لا يظهر إقطاع كما كان في القوانين الرومانية التي كانت تمنح الابن البكر مزايا عديدة منها ميراث الأب مما أعطى "البكورية" امتيازاً ، لقد رفض الإسلام هذا وساوى بين الأبناء جميعاً ورفض الرسول أن يشهد على منح أحد الأنصار أبنا من أبنائه منحة ثمينة قائلاً "هل أعطيت كل أبنائك مثلها" ، فلما رد بالسلب رفض الرسول لأنه لا يشهد على ظلم ، وجعل الميراث حصصاً محدده تبعا لدرجة القرابة أو الحاجة .

ويمكن أن يضاف إلى هذه أيضًا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يقم الإيمان به على معجزات خارقة للطبيعة ، كان لا تحرق النار إبراهيم أو تلتقط عصا موسى أفاعي السحرة أو يحيي المسيح ميتًا أو يشفي عشرات المرضى ، لم تكن معجزة الإسلام شيئًا من هذا ، لقد كانت كتابًا بلغ المثل الأعلى في القيمية ، وفي الأسلوب ، وفي الخيال ، وفي النظم الموسيقي ، والنثر الفني ، واستخدام المجاز أكثر من السرد ، وإبراز قيم الحرية ، والعدالة ، والخير ، والمساواة ، والمعرفة كمثل عليا ، كانت تلاوة القرآن أو

الاستماع إليه هو كالاستماع إلى سيمفونية من سيمفونيات بيتهوفن تؤتي أثرها بالانطباع ، فبعد أن يفتح النظم الموسيقي الأذان حتى تدخل القيم من عدالة ومساواة .. الخ .

ولما كان الإسلام هو دين الإنسان ، ولما كانت الطبيعة البشرية هي ما أشرنا فقد كان لابد للإسلام أن يتعامل مع هذه الطبيعة بطريقة "جدلية" ، فهو يقر بالكثير منها ، ولكنه في الوقت نفسه يستأصل بقوة ما رأى أنه يخالف الأصول الإسلامية ، فحرم الخمر والقمار والزنا والحرب بين القبائل ، وكانت هذه هي سلوة المجتمع الجاهلي .

ولكنه تعامل مع الطبيعة البشرية بطريقتها حتى يجعلها تصغى إليه ، وهذا هو سر الطابع الفني للقرآن والنظم الموسيقي لآياته ، وأسلوب الثواب والعقاب ، كما أنه أيضًا سر تنويع الخطاب القرآني ، فالقرآن يخاطب نفوس الناس جميعًا ، فيتحدث حيناً بأسلوب يسيل رقة وعذوبة بحيث تتجاوب معه المشاعر النبيلة والعواطف السامية ، وهو حيناً يقسو ويعنف لأنه يعلم أن هناك نفوسًا لا يمكن أن تتأثر إلا بمثل هذا الأسلوب ، وهو يعتمد على فكرة الثواب والعقاب لأنها أحد الأفكار الأساسية التي يتأثر بها الأداء فهو يثيب المحسنين وهو يعاقب المسيئين ، وهو يرى أن هذا الأسلوب لا غناء عنه لأنه لا يمكن أن يقف بين المحسنين والمسيئين موقفاً واحدًا ، أو سلبيًا ، ولا يمكن أن يثيب المحسن دون أن يعاقب المسيئين .

إسلام الإنسان ليس إسلامًا مثاليًا لأنه لو كان مثاليًا لما أمكن تطبيقه ، ولكن الإسلام يبدأ من التطابق مع الطبيعة البشرية ويدفعها رويدًا وهو يتمسك بالعدل الصلب ، ولكنه يرفقه بالرحمة حيناً ليرقق من صلابته وبالإحسان حيناً ليرقعه فوق العدل .

هل جعل الإسلام "إسلام الإنسان" بالعقل ؟

الرد : نعم ، ولكن خلال ٢٥ عامًا ، هي مدة حكم الرسول للمدينة وسنتين ونصف خلافة أبي بكر .

وخلال هذه الحقبة الأولى القصيرة استطاع الإسلام أن يحقق حلم الفلاسفة والمفكرين وأن يوجد الدولة "اليوتوبيا" في المدينة طوال ربع قرن ، ذلك أن الدولة التي أسسها الرسول في المدينة ، وإن كان فيها بعض مقومات الدولة كإبرام الاتفاقيات والحكم بين الناس وإدارة شئون المجتمع ، فإنها قد خلت من أعظم مقومات الدولة المميزة لها ، ألا وهو أن تكون أداة قهر فيوجد فيها الجيش والبوليس والمحاكم والسجون ، وتفرض ضرائب لأن حصيلة الضرائب هي ما تنفقه الدولة على أجهزتها .

نقول لم يكن في "دولة" المدينة شيء من هذا ، فلم يكن فيها جيش نظامي محترف ودائم ، وعندما ثار بعض شذاذ العرب على الخليفة عثمان ، لم يوجد في المدينة وهي العاصمة قوة عسكرية تقهرهم فقتلوا الخليفة وهيمنوا على المدينة لمدة ما ، ولم يكن في المدينة سجن ، ولم تفرض ضرائب ، لأن الدولة لم تكن بحاجة إلى مال فالرسول لا يتقاضى أجرًا ، وليس هناك سجون أو بوليس أو جيش ، أما قضية العدالة الاجتماعية فقد كفلتها الزكاة التي كانت تؤخذ من الأغنياء لتعطى للفقراء ، وفي الوقت نفسه فإن رئيس هذه الدولة كان نبيًا تحوطه رعاية الله ويصحح له الوحي اجتهاداته ، بل يراقبه ويعاتبه إذا أخطأ .

وكانت السمة الرئيسية لهذه الدولة هي المساواة ، وهي الركن الركين التي يمكن أن تقوم على أساسه كرامة الفرد وحكم الإنسان خاصة عندما توجد الضوابط التي تحول دون حدوث الديماجوجية ، ولم تجعل هذه المساواة لأحد فضلاً أو امتيازًا على آخر حتى الرسول نفسه الذي كان عندما سوى الصفوف قبيل إحدى المعارك مس أحد المسلمين لأنه شذ عن الصف فادعى أنه أذاه ، فكشف له الرسول عن بطنه ليقتص منه ، وهنا قبلها الرجل وقال أنه إنما أراد أن يكون هذا آخر عهده بالدنيا ، وفي خلافة عمر بن الخطاب عندما وطأ أحد الأعراب إزار جبلة بن الأيهم وهو ملك عرب الشام في الطواف ، فضربه جبلة ضربة أسالت الدم من أنفه وشكاه الرجل إلى عمر الذي أخبر جبلة أن عليه أن يُرضي الرجل أو يقتص منه ، فقال جبلة

مستنكرًا "تقصني وأنا ملك وهو سوقة" ، قال عمــر " الإسلام سوى بينكما" .

وإذا قارنا ما بين ديمقراطية السوق في أثينا ، وديمقراطية الجامع في المدينة لوجدنا أن ديمقراطية الجامع أكثر تحقيقاً للديمقراطية لأن الجامع مفتوح للجميع لا تحكمه اللوائح ولا الضوابط التنظيمية التي كانت تقيد طريقة المشاركة في أثينا ، فضلاً عن أن دخول العبيد والنساء كان محرمًا في ديمقراطية أثينا ومباحًا في ديمقراطية الجامع ، وقد ضربت لنا تلك المرأة التي وقفت في المسجد وعارضت علانية ، بصوت عال ومنطق سليم فكرة الخليفة عمر بن الخطاب في تحديد المهور لأن الله تعالى يقول "وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطاراً فلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً" ، وقد يكون أهم من المشاركة الفعالة والمعارضة القوية لهذه المرأة خضوع وتسليم عمر وإقراره "أصابت امرأة وأخطأ عمر" .

إن عنصر المساواة هو أكبر عنصر يؤدي إلى مجتمع الإنسان لأنه المناخ الذي يسمح لكل واحد بالقول والمشاركة ولأنه يمحى كل المزايا على أساس الطبقة أو الثراء أو الجاه .. الخ .

بالإضافة إلى هذا المناخ الذي يحقق الإنســانية ، فهناك عاملان هامان ، الأول هو الأمن من الاضطهاد أو المضايقة أو ما تقوم به السلطات من أساليب عديدة تهدد أمن المواطن وتحد حريته وتغرس فيه الخوف ، والعامل الثاني كفالة المورد المادي الذي يحقق حياة كريمة لا يشتكي فيها فاقــة أو عوز ويتوفــر فيها قوت يومه ، وقد كفلت دولة المدينة هذين ، فكل مواطن كان آمناً في سربه ، مطمئناً إلى أن أحدًا لن يقرع عليه الباب في هدأة الليل لينتزعه من فراشه وليودعه سجناً ، فهذا ما لم يكن يتصور لسبب بسيط ــ هو كما ذكرنا ــ لم يكن في هذه الدولة العجيبة سجن !! ، كما أن نظام الزكاة كان يحمي كل الفئــات التي تضطرها ظروف معينة أو طارئة إلى الحاجة والدعم ، وكانت مواصفات الدولة للحياة النمطية تكفل الأكل والشرب والسكن والزي وأن يكون له وسيلة انتقال .

حقيقة أننا لا نرى في هذه الدولة إشارة إلى حقوق الإنسان كما في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أو الوثائق الدولية الأخرى ، إن هذا يعود إلى أن الإنسان كان أصلاً هدف الإسلام ، وأنه نسب هذا إلى الله تعالى عندما جعل الإنسان خليفته فاعتبر ما نسميه "حقوق الإنسان" واجبات الإسلام ، وعلى كل حال فإن لكل عصر لغته ووسائله المختلفة ، وليس المهم الألفاظ ولكن المعاني ، وقد كانت معاني مجتمع الإنسان محققة في المدينة من توفر عنصر المساواة والأمن من الوقوع في قبضة السلطات والزج في السجون أو إيقاع العقوبات ، والأمن دون أن يقع ضحية للحاجة والعوز ، كل هذا كان محققاً دون إشارة إلى "حقوق الإنسان" لأن الإسلام عالجها كواجبات عليه وكجزء من تداعيات طبيعته ، كما تحدث عن الإنسان باعتباره بني آدم حتى يكون شاملاً لكل الناس من أبيض وأسود ، رجل وامرأة .. الخ .

- ٣ -

إسلام السلطان

لابد أن نعترف أن إسلام الإنسان لم يبق طويلاً ، لقد وقف عند سنة ٤٠ هجرية عندما حول معاوية بن أبي سفيان الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض حفل بكل ممارسات الإرهاب التي تقترن بحكم قيصـري أو كسروي ، وحدثت مع هذه النقلة في الأساليب والحكم الانتقال من مكة والمدينة وهما صميم العرب إلى الشام التي حكمتها بيزنطـة لقرون طويلة ، ثم إلى بغداد التي كانت قبلاً محل حكم الفرس ، ولم يكن هذا العهد الإرهابي جديدًا عليهما فتقبلتاه ، ومن هذا التاريخ وقد ظهر إسلام السلطان بصور متفاوتة .

كان هناك أسباب عديدة أدت إلى هذا .

أولها : أن التطورات التي أدت إلى تكوين "دولة" المدينة أولاً تحت رئاسة الرسول ، وثانياً تحت رئاسة الخلفاء الراشدين أدت إلى نوع من الخلط بين تحقيق الخطوط العريضة التي وضعها القرآن للدولة الرشيدة وبين إقامة "دولة إسلامية" ، والعجز عن تميز الفروق الضخمة بين دولة المدينة في عهد الرسول التي لا يمكن القياس عليها ، وأي دولة "إسلامية" أخرى ، فدولة المدينة انطلقت من جذر واصل هو سيادة الإنسان باعتباره خليفة الله على الأرض ، في حين أن كل الدول الأخرى بما فيها أي دولة إسلامية ستنطلق من سيادة الحكم ، وقد كان الصحابة معذورين لأنهم لم يتبينوا أن الملابسات الواقعية هي التي دفعت الرسول لإقامة دولة المدينة ، وليس الفرائض الدينية ، وأن دولة الخلفاء الراشدين التي أعقبت دولة الرسول كانت استمرارًا لحكم الرسول بفعل ملابسات عملية أيضًا ، ولما كان تأسيس دولة إسلامية لابد وأن يؤدي في النهاية لاستغلال الدولة للدين ، فإن هذا هو ما حدث سنة ٤٠ هجرية إذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض ، ولم يكن من

هذا مناص لأن السلطة ـ التي هي أبرز خصيصة الدولة وتتجلى في الحكومة ـ تفسد الأيدلوجيا وما تقوم عليه من قيم ، وكان هذا في أصل الانحراف من إسلام الإنسان إلى إسلام السلطان .

لا يمكن أن نضائل من الوحشية التي مارستها الدولة الأموية ، إن خطبة زياد البتراء كانت مانيفستو إرهاب يرهب كل الناس "حتى يقولوا "انج سعد فقد هلك سعيد" ، وتماثلها خطبة الحجاج التي قال فيها "إني أرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها" .. الخ ، وما مارسه عبد الملك بن مروان ثم جاءت الدولة العباسية فكانت أسوأ من الأموية ، وحسبك وصية إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني التي جاء فيها "إن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله" ، وكان أول "خليفة" لهذه الخلافة يحمل لقب السفاح ، ويقول في أول خطبة له "أنا السفاح المبيح والثائر المنيح" ، ومارس أبو جعفر المنصور فنوناً من العسف والظلم ، وطبع ذلك نظام الحكم الذي يسمونه الخلافة بطابع الفساد الذي يدور على استعباد الناس وإهمال كل مصالحهم أو عناية الصناعة والزراعة .. الخ .

وكان فساد هذا الحكم هو أكبر عامل أفسد المجتمع الإسلامي وقضي عليه بالتأخر والتخلف وحال دون تقدمه وأنسى تماماً "إسلام الإنسان" ليصعد "إسلام السلطان" .

ولا يشفع لهذه الخلافة أموية أو عباسية أنها فتحت الفتوح ونشرت الإسلام لأن هذا كان ممكناً بدونها ولما ازدهر من شعر أو أدب أو تخصصات إسلامية (حديث ـ فقه ـ تفسير) ، لأن المهم هو كرامة الإنسان وخدمة الإنسان ، وقد انحط الإنسان في هذه العهود حتى كاد يفقد إنسانيته ، فضلاً عن أن سوء الحكم أهدر ما وصل إليه المجتمع من تقدم .

وثانياً : إن زحف الإسلام السريع الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ "ربما يماثله شيئاً ما فتوحات الإسكندر" مع سماحة الإسلام أدى إلى ضم

الملايين من سكان الدول المفتوحة الذين أسلموا ، وزاد عددهم عن عدد العرب ، فضلاً عما كانوا يتمتعون به من مهارات بحكم حضاراتهم السابقة واستطاعوا بسرعة أن يهيمنوا على العلوم الشرعية من تفسير أو حديث أو لغة أو فقه ، ومع أن هؤلاء أرادوا خدمة الإسلام ، فإن وراثتهم الحضارية ، فارسية ، رومانية ، هندية ، بيزنطية أثرت على طريقة معالجتهم للفنون الإسلامية ، ويجب أن نعلم أن هناك بالإضافة إلى الوراثة البيولوجية التي تؤثر على الخصائص الجنسية للإنسان وراثة حضارية تؤثر على طريقة التفكير والتعامل ، وأنهم بهذه الصفة الأخيرة أدخلوا مفاهيم غريبة على الفكر الإسلامي ، كما كانوا مستعدين للمهادنة مع الحكم العضوض الذي ألفوه قرونا سابقة .

ومع أن الأغلبية العظمى من هؤلاء آمنوا لما لمسوه في الإسلام من ميزات أشرنا إليها ، ولأن هذا الإيمان يفتح أمامهم الباب للتقدم إلى أعلى المراتب في المجتمع ، ومع الاعتراف أنهم قدموا جديداً في الفكر الإسلامي وأنهم كانوا مخلصين في خدمتهم للإسلام فإن هذا لا ينفي وجود عدد قليل منهم كانت أواصرهم وحضارتهم القديمة أعز في نفوسهم عن الإسلام ، وساءهم أن ينتصر الإسلام ، فعمدوا إلى الكيد له .

ثالثاً : أن حديث الكيد للإسلام يعود إلى أيام الرسول فإن اليهود ومشركي مكة أرادوا أن "يلغوا في القرآن" لأنه هو أصل الإسلام ، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ" (٢٦ سورة فصلت) ، ولكن القرآن كان مصوناً في صدور الرجال مثبتاً على كل ما يصلح للكتابة فعجزوا عن أن يلغوا فيه بطريقة مباشرة ، ولكنهم اصطنعوا أحاديث تشوه القرآن وتدخل فيه ما ليس فيه وتخرج منه آيات بحجة النسخ وتعيد أسباب النزول إلى "أسباب مضحكة مزرية"، وقد حدث هذا الكيد أيام الرسول ، ولكن لم يظهر إلا عند تدوين السنة ، وعندئذ اعتبر من الأحاديث التي يأخذ بها المحدثون لأن هؤلاء الكائدين وضعوا لها سندًا يرقى إلى عبد الله بن عمر بن

الخطاب أو عبد الله بن عمرو بن العاص أو السيدة عائشة ، ولم يكن المسلمون ينظرون في السند حتى فتنة عثمان فجازت عليهم هذه الأحاديث ، وكانت الأساس الأكبر في إفساد فهم القرآن وفي تلويث معانيه وأحكامه وعليها اعتمد أعداء الإسلام في الكيد له والتنديد به وعليها صدرت أحكام بعيدة كل البعد عن روح الإسلام الحق ، ولا نشك أن كل ما حشي به "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي وغيره من الكتب التراثية من أحاديث عن نقص سور ، وتبديل وتغيير إنما هي كلها أحاديث وضعها أعداء الإسلام حتى "يلغوا في القرآن" .

نتيجة لما دس على الإسلام من كيد لوث السُنة وأفسد الكثير منها ، ولسوء الحكم انحرف الفكر الإسلامي ، وبوجه خاص الفقه الإسلامي عن ممارسات وأفكار الفترة النبوية وخلافة أبي بكر وعمر ، وخضع لضرورات العهد وبدأ مسيرة طويلة لم يكن في حسابها الإنسان ، ولكن التخصصات في الفقه ، والحديث والتفسير التي تضخمت وتعددت بحيث ارتؤي في القرن الخامس الهجري إغلاق باب الاجتهاد وسجن الفكر الإسلامي فيما جاءت به المذاهب الأربعة وأصبحت الكتابات الإسلامية اجترارًا وتكرارًا أو شرحًا لما جاء به أئمة المذاهب ، وأطبق هذا الفكر السلفي على الفكر الإسلامي إطباقاً حال دون أن يرى شيئاً آخر غيره .

وخلال تلك المدة الطويلة أي منذ بدأ الملك العضوض سنة ٤٠ هجرية حتى أنهى مصطفى كمال الخلافة في تركيا ، وقد ساد الاستبداد وتفشت المظالم ، وولي الحكم ولاة جهلة جعلوا هدفهم إثقال الشعب بالضرائب والاستحواذ على الثروات ، ولم يهتموا بالتعليم أو إصلاح الزراعة والتجارة والصناعة ، ولم يكن في هذا الحكم الذي أطلق عليه خلافة شيئاً من الإسلام الحق ، وكان الإسلام السائد هو إسلام السلطان ، وطوي تمامًا ـ حتىٰ أُنسي ـ إسلام الإنسان .

ووجد الفقهاء أنفسهم وهم يعايشون عصور الظلم والاغتصاب وحكم الديلم والترك والسلاجقة والتتار والمماليك وغيرهم ممن لا يحسن العربية أو

حمل معه قوانينه "الياسة" مضطرين لإصدار أحكام تتفق مع مقتضيات الحكم ، ولم يكن من هذا بد ، لأنهم لو حكموا بغير ذلك لتعرضوا للاضطهاد ، أو القتل ، وقد نال هذا الاضطهاد والأئمة الأربعة ، على جلال قدرهم ، فما بالك بمن هم دونهم ، ولو قارنا بين إحكام "إسلام السلطان" و "إسلام الإنسان" التي هي في الحقيقة أحكام القرآن والرسول لوجدنا فرقاً شاسعًا يصل إلى حد التناقض ، وحتى لا يكون هذا كلامًا مرسلاً ، فيمكن أن نجري مقارنة موجزة في قضايا الإيمان بالله ، حرية الاعتقاد ، والعدل ، والمرأة ، والسرقة .

ففي عهد إسلام الإنسان نجد أحكام القرآن والرسول مطبقة .

في الإيمان بالله نجد الإيمان بالله يقوم على ما وضعه القرآن من دليل الخلق ، وأن هذا الكون العظيم له خالق هو الله ، نجد أن الإيمان بالله يقوم على أربع كلمات جاء بها القرآن "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ" ، فهنا الإيمان يقوم على منطق البداهة العقلية التي يفهمها كل واحد ، ولم يتوقف المسلمون عند الآيات المتشابهات ، وقالوا كما علمهم القرآن "آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا" ، ولذلك فلم يخطر لهم ببال قضايا الصفات أو غيرها مما يلوث صفاء الإيمان .

في مقابل هذا نجد الإيمان في "إسلام السلطان" تقوم على علم يدعى علم الكلام (!) ، ويعتمد على فلسفة يونانية ، ويثير قضايا الصفات بصورة تمزق الإيمان ، وإيمان مثل هذا لا يقوم على عقل بديهي ، وإنما على جدل منطقي ، ولا يدفئ النفس أو يثير فيها الرضا والسلام .

في موضوع حرية الاعتقاد نجد أن القرآن يؤكد حرية الاعتقاد ويفتح بابها على آخره :

- "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" .
- "وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" .

- **"أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" .**

ويجعل الهداية والضلالة قضية شخصية ، لا يكون للنظام العام دخـــل فيه :

- **"فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا" .**

وتحدث القرآن عن الردة مرارًا ولم يرتب عليها عقوبة دنيوية ، وارتد في عهد الرسول عدد من المسلمين فلم يوقع عليهم عقوبة ، ولكن قال : " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" .

وفي غير مجال الاعتقاد نجد حديث معاذ عن الاجتهاد "اجتهد رأيي ولا آلو" .

إذا قارنا هذا بما توصل إليه فقهاء السلطان فإنهم ادعوا وجود حديث "من بدل دينه فاقتلوه" (رواه عكرمة مولى ابن عباس) ، ولم يؤثر عليهم أن الإمام مسلم رفض كل أحاديث عكرمة ، وأن الحديث يخالف عمل الآيات ، ويخالف الرسول ، بل أكثر من هذا "صعدوا الأمر فأبدعوا صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة" ، وهي صيغة تحتمل مائة تهمة ، فيمكن مثلاً لأي واحد يعارض الحاكم أن يقال إنه جحد معلومًا من الدين هو طاعة الحاكم طبقاً لما جاء في القرآن "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ" ، وقد اعتبر بعضهم أن رفض الحجاب بالنسبة للمرأة يدخل في جحد معلوم من الدين بالضرورة .

أما الاجتهاد فقد أصبح صورة من القياس ثم أغلق بابه من القرن الخامس وأصبح الفكر الإسلامي أسير المذاهب المقررة .

فإذا انتقلنا إلى العدل فنحن نرى إن القرآن لا يندد بشيء كما يندد بالظلم ، ورأى أن إمرة المترفين أذان بزوال العهد ، وضرب المثل بفرعون وهامان ، وأنه لم يمتدح شيئاً كما امتدح العدل وجعله أساس الحكم .. الخ ، ونرى الشواهد العملية لذلك في "إسلام الإنسان" ، أي طوال حكم الرسول

وأبي بكر وعمر ، نرى امرأة تجادل الرسول وتشتكي إلى الله ، ونجد امرأة أخرى تعارض أمرًا كان عمر بن الخلاف يعتزمه ، وكانت محاولة المرأتين دفاعًا عن الحق وطلب للعدل ، ولكننا عندما ننتقل إلى إسلام السلطان ، فنرى الحديث عن "أطع الأمير وإن جلد ظهرك وغصب مالك" ، ونجد التسليم لإمارة المغتصب ، ولا نجد معارضة من أي نوع .

نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن المرأة بتكريم ويثني على ملكة سبأ ، ويجعل من النساء مثلاً للإيمان والكفر ويقول : "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" ، ويقول : "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ" ، ويقول : "وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" ، بدلاً من هذا نجد عشرات الأحاديث التي جاء بها فقهاء السلطان بعضها يجعل المرأة عورة ويحرم التعليم ويجعل الزواج حبسًا وملكاً ، ويجعل الزوج يمتلك التعدد متى يشاء والتطليق متى يشاء .

أما الرق الذي حاول الرسول أن يفرغه من أسوأ مضامينه فأوجب على من يصفع عبده أن يحرره ، وأوجب قبول المكاتبة ، وجعل "تحرير رقبة" كفارة لعدد كبير من الذنوب ثم أخيرًا وضع القاعدة التي كان يمكن أن يصفي الرق عندما حصر مورد ومنبع الرق في أسرى الحرب وجعل مصير هؤلاء ، "فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" ، وقد طبق الرسول ذلك في أسرى بدر وأسرى هوازن ، ولكننا بعد هذا ـ في إسلام السلطان ـ نجد الرقيق تجارة رائجة سواء من الذكور الذين يدربوا ليكونوا القوة العسكرية أو من الجواري وكان يوجد منهن في قصور الخلفاء المئات ، بل نرى بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين لا يخجلون من القول "الرق مقرر لا يملك أحد رفعه" .

وقد لا يقل أهمية عن هذا أننا لا نرى ذكرًا للزكاة من عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولا نعرف هل كانت تجمع ؟ ولا كيف كانت تصرف ؟ لقد أسدلت أستار كثيفة لأن الحكم لا يعنيه أن يؤخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء ، وإنما تهمه الضرائب ليبني القصور ويشتري الجواري ويجود على المتملقين والشعراء المداحين .

ومع تطاول الأمر وتباعد العهد أطبق ظلام الجهل ، وَصَدِئ العقل ، وغلب التقليد ، وفي الوقت نفسه تضخمت المؤسسة الدينية وأصبحت أشبه بالكنيسة في المسيحية تحرم .. وتقيد ، وتعني أول ما تعني بمصادرة كل فكر مجدد وملاحقة كل صوت يرتفع من غير زمرتها ، واحتكروا تمثيل الإسلام والتحدث باسمه كأنما أخذوا بهذا من الله موثقاً .

السابقون السابقون

في مواجهة الدعوات لا يكون الذكاء و "الشطارة" هو الرفض ، فما أكثر الرافضين ، ولكن الإيمان ، وهو حظ السابقين السابقين .

كان الرسول يدعو الله أن يسلم عمر بن الخطاب أو أبو الحكم بن هشام ، وقد أسلم عمر بن الخطاب ودخل التاريخ كالرجل الذي ساس إمبراطورية بروح "إسلامية" أما أبو الحكم بن هشام فرفض ، ولج في العناد وكان عزيزًا مقدمًا في عشيرته ، ولكن عداوته جعلته يدخل التاريخ باسم "أبو جهل" .

واليوم أمامك فرصة لتكون من السابقين .. فلا تضيعها .

- ٤ -

إسلام الإنسان مرة أخرى

أصول إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية

بالنسبة للظروف والملابسات التي أشرنا إليها والتي حالت دون أن يتوصل الفكر الإسلامي إلى أن لب وجوهر الإسلام هو الإنسان ، سواء كان هذا الفكر قديمًا سلفيًا ، أو حديثاً عصريًا ، تعين على دعوة الإحياء أن تقوم بهذا الدور التاريخي المجيد ؛ لأنها وحدها كانت المؤهلة لذلك .

أعدت دعوة الإحياء عدتها ، ولما كانت تؤمن أن أهم شيء هو وضع التأصيل النظري السليم الذي يتحرر من التلفيق والانتقائية وتطويع النصوص أو إدخال شيء ينافي الإسلام ، وأن الوسيلة المثلى للتغيير والتجديد إنما تكون بتحرير الإفهام بنشر الدراسات التي توضح فكرتها ، فقد أصدرت قرابة ثلاثين كتاب كل منها يشرح الفكر الجديد للإحياء في المجالات الإسلامية المختلفة .

فعن القرآن أصدرت "تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين" ، و"تثوير القرآن" ، و"الأصلان العظيمان .. الكتاب والسُنة" ، و "العودة إلى القرآن" ، و "تفنيد دعوى النسخ" .

وعن الفقه أصدرت مجلد "نحو فقه جديد" ، وهو يضم ثلاثة أجزاء بالإضافة إلى كتب أخرى مثل "الجمع بين الصلاتين في الحضر" شرح حديث "من رأى منكم منكرًا" ، " لا حرج قضية التيسير في الإسلام".. الخ .

وبالنسبة للمرأة ، التي تستأثر باهتمام خاص أصدرت "الحجاب" ، و"المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء" ، و"ختان البنات ليس سنة أو مكرمة ، ولكن جريمة" ، و"جواز إمامة المرأة الرجال" .

وفي مجال السياسة والحكم أصدرت "الإسلام دين وأمه وليس ديناً ودولة" (٤٠٠ صفحة) ، و"موقفنا من العلمانية والقومية والاشتراكية" ،

و"مسئولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث" ، و"خمسة معايير للحكم الإسلامي" ، و"البرنامج الإسلامي" ، و"ومسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم إلى القرآن" ، و" "ديمقراطية جديدة" .

وعن الدعوات الإسلامية أصدرت "رسالة إلى الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها" ، و"ما بعد الإخوان المسلمين" ، و"خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه" ، و"رسالة إلى الدعوات الإسلامية" .

بالإضافة إلى عدد آخر كبير يعالج قضايا معينة مثل "الجهاد" ، و"التعددية في مجتمع إسلامي" ، و"الإسلام وحرية الفكر" ، و"الإسلام والعلمانية" ، و"تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي" ، و"الإسلام والحركة النقابية" ، و"تفنيد دعوى حد الردة" .. الخ .

ُطبع ثلاثة آلاف نسخة من كل كتاب من هذه الكتب ، وقد نفدت طبعات بعضها وأعيد طباعة بعضها مثل "الحجاب" ، و"الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" ، و"تحريــر المرأة المسلمة" ، وبالإضافة إلى هذه الكتب ، فقد طبعت ـ طوال عشرين عامًا ـ عشرات الألوف من النشرات الصغيرة وبفضل هذه المكتبة وجد رأي عام تفهم وتجاوب مع فكرة دعوة الإحياء .

إن دعوة الإحياء الإسلامي قدمت مكتبة كاملة لأنها لا تستهدف إصلاحًا جزئيًا ، وإنما تريد إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية ، وهو مشروع لم يجرؤ عليه غير هذه الدعوة .

* * *

كان من أكبر العوامل التي حالت دون إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية هو الجهل بكيفية هذه الإعادة ، فحتى الذين يعترفون بوجود النقص فيها فإنهم كانوا يتحملونها لأنهم لا يعرفون كيفيــة إقامة البناء الجديد ، هل سيكون على أساس النظـام القـديم ؟ وعندئذ فإنه لن يكون

جديدًا ، فإذا لم يكن على أساس النظام القديم ، فعلي أي أساس يقام ؟ وهل يتصور وجود أساس جديد لم يخطر ببال أئمة الأمة طوال ألف عام ؟

نقول إن الأساس لن يكون جديدًا بالمرة من ناحية لأنه سيدور حول "الفهم" الجديد للأصول القديمة نفسها ، فالكل يجمع على أن القرآن هو أساس الإسلام ، وهو المصدر الأول والرئيسي في كل المنظومة ، ونحن أيضًا نعترف بذلك ، ولكننا نختلف معهم في أنهم لا يعرفون القرآن إلا عبر المفسرين ، ونحن نرفض هذا جملة وتفصيلاً .

لقد حازت تفاسير القرآن شهرة كبرى وقيل عن تفسير الطبري أنه لو سافر أحد إلى الصين بحثاً عنه لما كان كثيرًا ، وهذا التفسير نفسه محشو بالإسرائيليات والأساطير والأحاديث الركيكة والأشعار المنحولة .

إننا نسأل الذين يقدسون التفاسير من أين جاء المفسرون بكل ما حشوا به مجلداتهم الضخمة ؟ إن الرسول لم يفسر من القرآن سوى ما بين عشرين وثلاثين آية ، وقد توقف في تفسيرها حتى يأتيه وحي فيها ، فإذا كان الرسول نفسه لا يفسر القرآن من تلقاء نفسه ، فكيف أجاز المفسرون لأنفسهم هذا ؟ وكيف يحكِّمون رواياتهم الهابطة في النص المعجز المقدس ؟

وكيف يعملون سكين النسخ فيذهبون بآيات في المصحف تقرأ وتتلى .

روى عن الرسول أنه قال "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" أي أنه إذا أصاب مرة فلابد وأن يخطئ مرات ، ثم أنه خالف المبدأ ألا يفسر القرآن بالرأي ، وهذا نفسه هو ما قام به المفسرون .

يجب أن نذكر أن التفسير نشأ في مهاد السنة ، وأن السنة تعرضت لغزو وبائي من الوضع ، دق على المفسرين وانتقل إلى كل المدونات المعروفة بما في ذلك البخاري ومسلم ، خاصة وأن التفسير بالذات كان هدفاً مقصودًا للنيل من القرآن ولتحقيق "اللغو" الذي أراده الشانئون للإسلام وعجزوا عن القيام به بشكل مباشر ، فالتفوا عليه طريق الأحاديث التي تنال من قدسيته ، كما أشرنا من قبل .

من ناحية أخرى ، فإن الأسلاف لم ينظروا إلى القرآن كما نظر إليه الصحابة ـ كأداة هداية ـ ولكن نظروا إليه كمصدر للمعلومات والمعارف وكأنه "انسكلوبيديا" يمكن أن يتعرفوا فيها على العلوم والفنون ، كما لم يستسلموا له بقلوبهم ، ولكنهم أعملوا فيه فكرهم ، وكان الصحابة قد أسلموا قلوبهم للقرآن فهداهم القرآن ، ولم يحاولوا أبدًا أن يضعوا القــرآن موضع البحث والتنقيب ولم يسألوا الرسول ، والرسول بين ظهرانيهم ، أولاً لأن الرسول نهى عن السؤال ، وثانيًا لأن القرآن حقق الغرض الذي أريد منه وهو هدايتهم فخشعت قلوبهم ، والتزمت حواسهم ، وانتقل إلى حياتهم قبس من شعاع القرآن فغيرها وجددها ، أما الأسلاف فلم يهتدوا بالقرآن ، لقد أسلموا لأسباب عديدة منها سماحة الإسلام ، وبساطته وخلوه من التعقيد اللاهوتي المحير ، ومنها مساواته .. الخ ، فلم يكن القرآن على وجه التعيين هو الذي هداهم للإسلام ، ولما كانوا ورثة حضارات قديمة وفكر يختلف عن فكر العرب ، فقد طرحوا أفكارهم على القرآن بدافع من نشوة المعرفة والاستزادة ، وأيضًا بحثاً عن أحكام لمجتمع جاوز بساطة البداوة إلى تعقيد الحضر والمدن ، ومن مستوى دولة المدينة إلى مستوى الإمبراطورية ، ولكنهم لم يجدوا هذه الأحكام بالذات ، لأن القرآن لا يذكر إلا الكليات وترك التفصيل للرسول ، ولكن جوبهوا بوجود آيات مشتبهات وأحكام متعددة متفاوتة ، فجعلوا رسالتهم إيضاح المتشابهات والقضاء على تعدد الأحكام ، ووصلوا إلى الأولى عن طريق علم الكلام ، خاصة بعد أن تعرفوا على الفكر اليوناني ـ وتخلصوا من الثاني ـ تعدد الأحكام ـ بفكرة النسخ التي كانت في ذهنهم ، وكانت عند اليهود ، فاعتقدوا أن الآية ١٠٦ من سورة البقرة تؤيدهم "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ، ولم يكونوا موفقين في الحالين ، فقد قرر القرآن بالفعل ما يجب أن يتبع إزاء الآيات المتشابهات ، وأوضح أنها نوع من الاختبار في اختيار الموقف "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِــــلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَــابِ" (آل عمران ٧).

فأوضح أن الذين في قلوبهم زيغ هم الذين يتبعون ما تشابه به ابتغاء الفتنة ، أما المؤمنون فإنهم "يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الألْبَابِ" ، أما بالنسبة للنسخ فقد دق عليهم أن القرآن لا يستخدم كلمة آية بمعنى نص ولكن بمعنى برهان ، أو معجزة ، وفي كتابنا "الأصلان العظيمان" أوردنا كل المواضع التي جاءت فيها كلمة آية بالقرآن ، وهي ثمانون موضعًا كلها بمعنى المعجزة أو الدليل أو القرينة أو البرهان .

نحن إذن نرفض التفاسير لأسباب أصولية ، موضوعية ، هي أن القرآن كتاب هداية يؤدي دوره بالانطباع وبمجرد التلاوة أو السماع ، فالنظم الموسيقي يفتح الأذن لتدخل الآيات المصطحبة بالقيم النبيلة التي تتفق مع الفكر والعقل ، وازدواج هذين ، أعني النظم الموسيقي والقيم ، يحقق التغيير المطلوب ، أي الهداية ، وأن التفسير لا يقدم هذا بل يفسده ، ومن الناحية الشكلية أن التفسيرات محشوة بالإسـرائيليات والأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ، وأن المفسرين أسقطوا على القرآن كل ما في نفوسهم من اتجاهات نتيجة لتربيتهم وثقافتهم ومذهبيتهم وروح عصرهم وخضوعهم لنظم الحكم المستبد .. الخ ، مما يجعلها رؤية المفسر ، وليست مراد القرآن ، وظل هذا من ابن عباس حتى سيد قطب .

نحن نريد القرآن كما كان أيام الرسول "مانيفستو" لثورة الكلمة التي جمع عليها العرب "لا إله إلا الله" ، ووضع في يديهم الكتاب والميزان فحققوا ثورة الإسلام ـ ثورة الكلمة ـ ثم جاء إسلام السلطان فجرد القرآن من مضامينه الثورية وقيمه التحريرية ، وشغل المسلمين بجزئيات عقيمة وقضايا علم الكلام وآيات الصفات .

وسيسألون كيف نفهم القرآن ، وهو سؤال يكشف عن العجز والصدأ الذي ران على عقولهم قرناً بعد قرن . إن القرآن ـ كما قلنا ـ كتاب هداية يحقق هدفه بالتلاوة أو السماع ، قال تعالى "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" ، وفي هذا مقنع ولا يجعلنا في حاجة لأي تفسير ، على أننا نقول أن القرآن يفسر نفسه ، فما يجمله في موضع يفصله في موضع آخر وهو

يكرر معان معينة وقيم معينة لتترسخ في الأذهان ، كما أنه ليس من المطلوب معرفة القرآن آية آية وسورة سورة ، لأن هذا التعرف يتطلب عمر الإنسان ، والمفروض أن عليه التزامات نحو نفسه ، وعمله ، وأسرته ، ووطنه .. الخ ، مما لا يترك له إلا القليل من الوقت وما كان الصحابة أنفسهم يعلمون كل القرآن ، وإنما كانوا يحفظون آيات معدودة لا يجاوزونها حتى يعلموا ما فيها من العمل ، وعندما حفظ عمر بن الخطاب سورة البقرة "نحر جزورًا" ، وقد أغنانا القرآن لأنه يكرر قيمِّه في كل سوره ، وقد يُجمل القرآن أهم معانيه في سور قصيرة جدًا ، فما يتصل بذات الله يوجد في سورة الإخلاص " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ " ، فهذه السورة الموجزة تغني قارئها عن كل فزلكات وشنشنات كتب التوحيد ، وكذلك "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ" (الطور ٣٥) ، وقد تكفي سورة العصر ، بل حتى الآية الأخيرة منها "إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" وتؤدي جملة "لكم دينكم ولى دين" لتحديد العلاقة مع الآخر على أساس قبول التعددية والتعايش بين الأديان ، وأمثال ذلك كثير ، إن القرآن يشبه ثوب قماش ، من يريد أن يتعرف عليه يمكنه ذلك برؤية ولمس نصف متر منه دون حاجة لفرد الثوب كله .

ويجب أن نذكر أن القرآن هو "الوحي" ، وهو رسالة الله للبشر التي حملها جبريل ، ولا خلاف لدى المسلمين جميعًا في هذا ، وبهذه الصفة لا يجوز أن يكون موضوع التنقيب والتطويع ، كما لو كان كتابًا عاديًا ، وهو المأزق الذي وقع فيه المستشرقون ووقع فيه أيضًا الأسلاف دون أن يحسوا بخطر ، بل "وحرمانية" ذلك ، ووصل هذا إلى نسخ عشرات وربما مئات الآيات ، فأي جريمة أعظم من ذلك ، فضلاً عن العيب الأصولي في التفسير وهو أنه يخلط بين كلام المفسر وكلام القرآن أو يُفهم كلام المفسر كأنه مراد القرآن ، وشتان ما بين الاثنين ، من أجل هذا حرم الرسول القول بالرأي .

* * *

وبمراجعة القرآن الكريم نجد أنه يتضمن :

العقيــدة : التي تقوم على توحيد الله والإيمان بالرسل والبعث واليوم الآخر .

الشريعة : وهي تتعلق بالتنظيمات الدنيوية وعلاقات أفــراد المجتمع بعضــه ببعض في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

القيـــم : وهي المحفزات الإيجابية والضوابط المعنوية لبنـــاء الفرد وتوجيه تصرفاته وترشـيد المجتمع وتحقيـق تقدمه وضبط مشكلاته مثل الحرية والعدالة والمساواة والمعــرفة والشجاعة والكرم ..الخ.

وبالنسبة للعقيدة فلا يفترض أن تكون محل شك ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الله تعالى باعتباره الخالق وأصل القوة والحكمة والإبداع ، وأراد أن يقرب إلينا شعاعًا من شمسه ، واستخدم في ذلك المجاز والرمز لأنه لا يمكن الحديث عن طبيعة الله أو ذاته بطريق السرد العادية ، وقد فهم الصحابة هذا عن كل ما جاء فيما أطلق عليه الأسلاف آيات الصفات مثل الإشارة إلى يد الله " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " ، وأنه على العرش استوى .. الخ وقد أخطأ الأسلاف عندما قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وأن لله يدًا ليست كيد البشر لأنهم أوجبوا أن تكون له يد حتى وإن كانت مجهولة الكيفية ، وهذا في صميم التجسيم كائنًا ما كان ، ولو عادوا إلى القــرآن لوجدوا أن تعبير اليد كان تعبيرًا مجازيًا بحتاً وقد استخدمه القرآن في مواضع أخرى فقال : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" (سبأ ٣١) ، "وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" (الفرقان ٤٨) ، "إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" (سبأ ٤٦) ، "أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ" (المجادلة ١٣) ، فهل يكون للقرآن يد ليست كأيدي البشر أو يكون للعذاب يد .. الخ ، لقد أرشدنا القرآن عن الموقف إزاء الآيات المشتبهات أن نؤمن بها ، ونكل أمرها إلى الله تعالى ، ولكل واحد ما فهمه منها ولا يكون من حق أحد أن يُشاد فيها ، كما لا يكون من حقه أن يفرضها على غيره ، فلكل واحد ما اطمأن قلبه له ، خاصة وأن العقيدة تقوم على القلوب بالدرجة الأولى ، وإن لم يكن فيها ما يخالف العقل.

أما الشريعة فتختلف عن العقيدة في أنها لا تقوم على القلب ، ولكن العقل وأنها تستهدف العدل والمصلحة ، ولهذا فإن لكل حكم وجد في القرآن عن القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية علة أوجبت نزوله هي العدل والمصلحة بصفة عامة ، ولكن يحدث أن يقضي التطور على العلة التي من أجلها نزل هذا الحكم فيزول الحكم بزوال علته ، أو لا يزول ولكن يتأثر ، ومن ثم فيجب معاملته بما يتطلبه هذا التأثر دون التقيد بحرفية النص ، وقد كان هذا ما فطن إليه عمر بن الخطاب وطبقه في اجتهاداته المعروفة ، ولو أخذ بها الفقهاء وجعلوا منها منطلقهم لوفروا ألف سنة من المماكسة والمماحكة .

لهذا فنحن لا نرى حرجًا في التثبت من أن العلة وهي بصفة عامة العدل والمصلحة التي من أجلها نزلت أحكام الشريعة على اختلافها وسواء جاءت في القرآن أو السَّنة لا تزال باقية كما كانت ، فإذا انتفت أو تأثرت فإننا نعالج النص في ضوء هذا على أن لا نختان أنفسنا أو نحكم بالهوى ، ولكن أن نستهدف العدل والمصلحة ، لأنهما هما مضمون الشريعة، ونكون بهذا أهدى من تطبيق النص عندما تنتفي دواعيه .

* * *

بعد هذه المعالجة الجديدة للقرآن نأتي إلى السُنة ونحن نعترف أنها أصل من أصول الإسلام ولا نتفق مع الذين ينكرونها كلية ، ولكننا في الوقت نفسه نرى أنها تحتاج إلى معالجة غير تقليدية ، فقد كانت هي التي دخل عن طريقها الوضاعون وأساءوا إلى التفسير والفقه .

والسُنة في اللغة هي العادة ، والدأب ، والطريق ، ولا تعني أحاديث ، والسُنة الحقيقية هي السُنة العملية التي قام بها الرسول قيامًا عمليًا كأداء الصلوات ، وصيام رمضان وأداء مناسك الحج ، فهذه كلها مارسها الرسول أمام الألوف من الصحابة وانتقلت إلى الأجيال التالية جيلاً بعد جيل .

أما السُنة القولية ـ أي الحديث ـ فليس هناك شك في أن جزءًا منه يعد "سُنة" ملزمة ، ولكن هناك جزء آخر ـ ولعله الأغلب ـ لا يعد تشريعًا ملزمًا .

هذا من الناحية الأصولية ، أما من الناحية العملية فإن السُنة لم تدون إلا في عام ١٥٠ هجرية عندما بدأت المدونات الخاصة بالسُـنة ، أما قبل ذلك فلم يكن هناك تدوين وقد أراد الخليفة عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الهجرية أن يدونها وكتب إلى واليه بالمدينة أن يجمع ما لديه من الحديث ، ولكن عمر بن عبد العزيز توفى بعد سنتين من خلافته ، فلم تتابع التجربة .

وقد نهي الرسول عن كتابة حديثه وأمر من كتب شيئاً أن يمحه ، ولا ينفي ذلك أن يكون عبد الله بن عمرو بن العاص كتب شيئاً ، وأنه كان في قراب سيف علي بن أبي طالب صحيفة ، وأن الرسول قال اكتبوا لأبي شاة خطبة أعجبته ، فإن هذا استثناء من عموم الأمر وهو عدم الكتابة ، ولو أراد الكتابة لكتبت السُـنة كما كتب القرآن ، ونحن نعلم أن كل ما يقوله المحدثون دفاعًا عن مهنتهم ، ليس في الحقيقة إلا نوعًا من المماحكة المهنية ، وثابت أن أبا بكر لم يكتب السُـنة وأن عمرًا أخذ يفكر شهرًا في كتابتها ثم خار له الله ، فقال للصحابة أنه أراد أن يكتب السنن ثم ذكر قومًا كتبوا كتبًا وانكبوا عليها وهو لا يشرك بكتاب الله شيئاً .

كما لم يكتب عثمان ، وهو الذي أشرف على جمع القرآن ، ولم يكتب عليٍّ فهذه وقائع ثابتة ، ولو أن الكتابة كانت واجبًا أو حتى مقبولة ، لقام بها الخلفاء الراشدون ، ولا يرد على ذلك إدعائهم أن عدم كتابة السُنة يعود إلى خوف الخلط ما بينها وبين القرآن لأن أي واحد يعرف حرفًا في اللغة العربية يتبين الفرق ما بين أسلوب القرآن وأسلوب السُنة وما جعل الرسول يرفض كتابة حديثه واتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون ـ وهو ما صرح به عمر ـ أنهم خشوا أن ينكبوا عليها ويتركوا القرآن ، وهذا هو ما حدث بالفعل وما جعل بعض المحدثين يعلن أن السُنة تقضي على الكتاب ولا يقضي الكتاب على السُنة ، وأن القرآن أحوج إلى السُنة من حاجة السُنة إلى القرآن .

وقد حدث هذا لأنه أحد سنن تطور المجتمع البشري ، وقد تنبأ بها الرسول "لتتبعن سنن من كان قبلكم حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه" .

إن عدم الكتابة طوال هذه المدة الطويلة من الناحية العملية ثلمة كبيرة في مصداقية ما بين أيدينا من الأحاديث التي لم تدون إلا بدءًا من سنة ١٥٠ هجرية ، لأنه يُمكِّن من وضع ألوف الأحاديث تحلل الحرام وتحرم الحلال وتشوه القرآن وتضيف عليه ما ليس منه ، وتنقص منه ما هو فيه ، ولأنه حتى في الأحاديث التي نجت من الوضع فإنه ارتضى أن تروى بالمعنى وليس باللفظ ، وهذا في نص يمكن أن يعد قانوناً نؤخذ منه أحكام نقص كبير .

وقد بذل المحدثون جهودًا جبارة ، وطوال أجيال عديدة لاستنقاذ السُنة مما بليت به ، ولكن سياق التاريخ وظروف التطور حالت دون أن يفعلوا كما كان أبو بكر يفعل إذ كان يستحلف من يروي حديثاً ، أو كما كان عمر يفعل إذ كان يتطلب ثانياً مع كل من يروي حديثاً ، وقد كان العهد بالرسول قريبًا ، ولم يتعرض بعد المسلمون لما تعرضوا لـه من فتن وإحن بدءًا من مقتل عثمان ، لم يفعل المحدثون هذا ، ومع أنهم بدءوا بالتشدد والحفاظ فإنهم شيئاً فشيئاً انزلقوا إلى الترخص ، وتخلص الأتباع مما وضعه الأئمة من ضمانات ، فتخلص الحنفية من الشروط الثمانية التي وضعها أبو حنيفة ليمكن إعمال حديث ، وتخلص الشافعية من الشروط التي وضعها الشافعي للحديث الصحيح ، وألحقوا الحديث الحسن بالحديث الصحيح ، وألحقوا الحديث الضعيف بالحديث الحسن ، واعتبروا أن الحديث الموضوع هو أسوأ صور الحديث الضعيف ، أي أدخلوه في إطار الحديث ، واعتبروا أن كل من شاهد الرسول ولو للحظة صحابيًا معدلاً من الله ويؤخذ بكلامه دون تمحيص، كما اعتبروا إن السُنة هي كل قول أو فعل أو تقرير أوهم ، ويقصدون بالتقرير أن يذكر أمام الرسول شيء فيسكت ، وقالوا لو كان هذا الشيء حرامًا لصرح الرسول بتحريمه ، وهذا كلام ركيك فقد يكون مقبولاً لحالة معينة ، وقد لا يكون حرامًا ، ولكنه ليس حلالاً مطلقاً ، وفي جميع الحالات فيفترض أن لا يكون هناك إلزام إلا بنص صريح لا يقبل تأويلاً في القرآن الكريم ، وأجازوا إعمال أحاديث الأفراد رغم اعترافهم أنها لا تصل إلى اليقين وإنما "لغلبة الظن" ، أي لغلبة ظن ثبوتها على ظن عدم ثبوتها وإن

لم يجيزوا إعمالها في العقائد ، وتصوروا أن "المتواتر" نجا من الظن ، لأنه يقوم على تواتر عدد يستحيل عليهم جميعًا الكذب ، ولكن المفارقة المذهلة هي أن معظم الأحاديث المتواترة تكاد تكون مؤتفكات لأنها تتعلق بالمهدي والدجال وشق صدر الرسول وحوضه في الجنة .. الخ ، مما لا علاقة له بالخير أو الشر ، الهداية أو الضلال ، ومما لا يدعم أي قيمة نبيلة من خير أو تقوى أو مساواة أو كرم أو صدق أو شجاعة .. الخ . مما جاء الإسلام لإشاعتها .

لقد بين لنا القرآن الكريم طريقة إثبات الحقوق في آية الدين ، وعالجها بتفصيل دقيق على غير عادة القرآن مما جعلها أطول آية في القرآن وهذه الآية من سورة البقرة وهي التي تبدأ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة ٢٨٢) .

فبين لنا القرآن ضرورة الكتابة وضرورة الشهود وقال : "وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً" .. الخ ، كل هذا لإثبات الحق في بضعة دراهم أو دنانير ، فأحر به أن يتبع في نص تقطع به الرقاب وتباح به الفروج .. الخ .

لو قال قائل إن هذه الأوضاع تدفع الإنسان لأن يشك في كل ما يساق مبدوءًا بكلمة "حدثنا" ، لما كان مجاوزًا ، ولكان له من القرآن شاهد .

ولكن رأى البعض أن عوامل خاصة أو طارئة وجدت تشفع شيئًا ما لطريقة التناقل الشفهي مثل قوة حافظة العرب ، والاعتماد على الذاكرة قبل

أن يعرف أو ينتشر التدوين. والقداسة التي كانت تحوط النص النبوي ، ولأن الرسول كان عادة يتكلم ببطء ويكرر حديثه كما كان الصحابة يراجعونه حتى لا يفوتهم حرف ولا يقومون إلا "كأنما زرع في قلوبنا" .

* * *

إذا خلصنا من قضية الثبوت ، فهناك قضية مدى الحجية ، وفكرة أن ما ثبت من السُنة يصبح حكمًا يطبقه المسلمون جيلاً بعد جيل ، هذه الفكرة لا تؤخذ على إطلاقها ، لأن هذا يستتبع أن تكون السُنة كالقرآن ، وهذا أمر أول من ينفيه الرسول نفسه الذي كرر أكثر من مرة : "أن الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وبينهما عفو فاقبلوا من الله عافيته" ، كما أنه التطبيق الأمين لما ذكره القرآن مرارًا وتكرارًا من أن الرسول مبلغ لما أوحي إليه ، ولا يملك تعديلاً أو إضافة أو انتقاصًا وأنه ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك حتى هداية من يحب ، لأن الله هو الذي يهدي من يشاء .

نجابه هنا بنوع من التعارض ، فمن ناحية هناك تأكيد أن رسالة الرسول هي تبليغ الوحي ، دون ذكر السُنة ، وهناك أيضًا آيات توجب طاعة الرسول والنزول على حكمه ، وأن "التبيين" وهو من مهمته بنص القرآن لابد بالضرورة أن تتضمن شرحًا ، والحل أن السُنة الثابتة توجب على المؤمنين الالتزام بها ، ولكن هذا الالتزام لا يكون أبديًا ، وهو ما يوحي إليه أمر الرسول يمحو ما كتبه الصحابة من حديثه ، وعدم تدوين السُنة أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، فهذا يقتضي أن الرسول ما كان يريد لحديثه تأبيد القرآن ، وهذا أيضًا ما يؤيده عدم ذكر القرآن التفاصيل واقتصاره على الكليات ، فالقرآن والرسول متفقان على أن التفاصيل التي جاءت نتيجة لتبيان الرسول للقرآن أو لعدم ذكرها في القرآن تطبق على جيل الرسول ، وعلى الأجيال اللاحقة ما ظلت صالحة لهذه الأجيال وبهذا تكون قد أدت مهمتها ، وعندما يصل التطور إلى درجة لا تتجاوب معه السُنة عندئذ نعود إلى القرآن لنستلهم منه ما يتجاوب مع التطور بإعمال المبادئ العامة التي وضعها للشريعة وهي العدل ، وإذا كان عمر بن الخطاب قد رأى أن بعض

الآيات القرآنية الخاصة بالشريعة يجب أن تتجاوب مع مقتضيات تحقيق العدالة أو أنها تنتفي عندما تنتفي العلة التي من أجلها نزل الحكم ، وهو العدل ، فهل تستعصي السُنة عن مثل ذلك ؟

إن هذا التكييف المبني على أسانيد من القرآن ، ومن الرسول توضح كيف أن فهم دعوة الإحياء يذهب بنا بعيدًا بعيدًا عن عالم الأسلاف الذي جعل من بعض الأحاديث قميص كتاف أو قيدًا حديديًا ، لأنهم تصوروا أن السُنة لها تأبيد القرآن ، ولا يقف في سبيل ذلك أن يقول المحدثون أن السُنة وحي كالقرآن ، فقد يكون بعضها وليس كلها وحيًا ، ولكنه وحي سُني يقل كثيرًا عن الوحي القرآني الذي يحمله جبريل ويبلغه للرسول حرفاً حرفاً ، يدل على ذلك أن الرسول في كثير من الأحاديث يقول "إن روح القدس قد نفث روعي" أو "أتاني من ربي" ، أو "أمرت" .. الخ .

ولو قال قائل "إذا كان النساء في عهد الرسول يتحجبن ، فإن ذلك لا يُعد مبررًا أو حكمًا على النساء اليوم أن يتحجبن" ، لما كان مخطئًا ، فمن الواضح أن الآيات التي جاءت عن زي المرأة لم تحدد مكاناً يجب تغطيته إلا فتحة الصدر ، وما عدا هذا فالآيات عامة وقد فسرها الرسول في ضوء أوضاع المرأة العربية ، وفي وقت معين ، ولكن المرأة المسلمة اليوم ليست محصورة في الدول العربية ، كما أن الأوضاع قد اختلفت ، ومن ثم لا يكون هناك حرج في عدم وضع حجاب مع ملاحظة الحشمة ، والبعد عن التبذل أو التبرج ، والزي بعد ، ليس من العقائد ، ولكن من العادات .

وهذا لا ينطبق على السُنة العملية العبادية التي شاهدها جمهور المسلمين من الرسول وتناقلوها جيلاً بعد جيل مثل طريقة الصلاة ومناسك الحج .. الخ .

وقد ارتأت دعوة الإحياء الإسلامي أن الحل الأمثل للتعامل مع السُنة وإعمالها مع الحيلولة دون دخول الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أن تحكم السُنة بمعايير من القرآن الكريم ، ووضعت بالفعل في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو الخاص بالسُنة اثني عشر معيارًا ، فإذا خالف حديث

ما أحد هذه المعايير فنحن لا نلتـــزم به ، وقد لا يتسع المجال لسردها بالكامل ، ولكننا كمثال نعتبر أن حرية العقيـدة هي إحدى هذه المعايير ، فإذا وجد حديث يخالفها ، مثل حديث "من بدل دينه فاقتلوه" ، فنحن لا نلتزم به ، لأنه يخالف الآيات العديدة عن حرية الاعتقاد ، ومن هذه المعايير "الغيب" الذي اســتأثر الله تعالى به ، وقال الرسول أنه لا يعلم الغيب ، ولهذا فدعوة الإحياء الإسلامي تتوقف أمام الأحاديث التي تصف ما يحدث من الوفاة حتى الجنة والنار ، فهذا كله غيب ، لا نعلم عنه إلا ما ذكر القرآن ، كذلك فنحن نعد كل الأحاديث التي تبرز دونية المرأة مخالفة لما جاء في القرآن الكريم عن المرأة .

بهذه الطريقة تحل قضية السُنة حلاً لا يمكن أن يعترض عليه أحد ؛ لأن المآل فيه هو القرآن ، وفي الوقت نفسه نخلص من طوفان الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

* * *

ارتأى الأسلاف أن هناك أصلين للشريعة هما الإجماع والاجتهاد (أو القياس) .

أما الإجماع فنحن نرى أنه لم يحدث عمليًا ، باستثناء إجماع المسلمين على السُنة العملية ، أي رؤية المسلمين جميعًا للرسول وهو يصلي وصلاتهم بصلاته أو رؤيتهم وهو يحج فحجوا كما حج ، وليس هذا هو المقصود من الإجماع كأصل في الشريعة ، وإنما هو القسم المطبق من السُنة ، أما إصدار أحكام في قضايا معينة بناء على إجماع المسلمين ، فهذا ما لم يحدث ، وقد أنكر الإمام أحمد الإجماع صراحة ، وأهال الشافعي شكوكاً تذهب به ، وكل ما جاء به الفقهاء هو تمحك ينقلونه عبر الأجيال كل واحد بعد الآخر دون أن يفكروا فيه .

أما الاجتهاد فإن الفقهاء لم يطبقوه بالصورة التي عبر عنها معاذ بن جبل وأقره الرسول عندما قال إنه إن لم يجد في القرآن أو السُنة "اجتهد رأيي ولا ألو" ، لقد جعل الفقهاء من هذا الاجتهاد المتفتح العام نوعًا محدودًا

من القياس (وليس القياس أصلاً اجتهاد) نشـأ من اتحاد العلة ، فإذا اتحدت العلة في حالة جديدة مع العـلة في حالة قديمة أخرى سرى حكم القديمة على الجديدة "لاتحاد العلة" ، وهذا مسخ للاجتهاد أو هو كما قلنا "قميص كتاف" .

وهكذا نجد أن هذين الأصلين لا يعتد بهما ، ودعوة الإحياء تحل محلهما العقل والحكمة ولها شاهد من القرآن الكريم الذي يرى العقل هاديًا في آيات عديدة ، والعقل في حقيقته وحي إلهي أنعم الله به على كل إنسان ليتعرف الخير والشر ، الصواب والخطأ ، وحتى لا تطغى الخرافة فيؤمن بها ، ولا يقال إن الأديان هي التي تدل على الخير أو الشر لأننا قلنا إن العقل هو الذي يهدي إلى الإيمان بالأديان ورفض ما عداها من الخرافة ، فلا يمكن أن تكون هي التي "تحسن الحسن وتقبح القبيح" كما يقولون ، وكل ما يراه العقل حسناً فهو في الشرع حسن ، وهي قضية مبتوتة ومحسومة ولا يمارى فيها إلا الجهلاء .

أما الحكمة فليس لدعوة الإحيـاء فضل إبداعها ، وإنما فضل استكشافها ، فقد دعا إليها القرآن ، وقرنها بالكتاب فقال "وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" ،"وأنزلنا الكتاب والحكمة" ، وقد ارتأى الشافعي أن الحكمة هي السُنة ، ولكن القرآن تحدث عن الحكمة بما ينفي هذا تمامًا ، وأن الرسول نفسه قال "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها" ، (وفي رواية أنى وجدها فهو أحق بها) ، وتعتقد دعوة الإحياء أن هذا يمكن أن يكون من أبرز تجديداتها ، لأن الحكمة ليست السُنة كما ذهب إلى ذلك الشافعي ، وليست الفلسفة كما ذهب إلى ذلك ابن رشد ، وإنما هي خلاصة حكمة الشعوب جميعًا التي أثبتت الأيام سلامتها وصوابها ، واعتبارها أصلاً للشريعة يعني أن يقتبس الإسلام منها ويأخذ بها دون حرج أو حساسية سواء جاءت من الصين أو أوروبا أو أمريكا .. الخ .

وتتضح أهمية هذا الأصل من أن الإسلام لما كان آخر الأديان فيفترض أن يتطور بما يحقق الصلاحية مع كل زمن ، ولا يكون هذا بأن يغلق أبوابه ،

ولا أن يفرض نفسه على التطور ، ولكن بأن يفتح أبوابه ونوافذه وأن يسير مع التطور ويأخذ من كل الثقافات أن هذه الثقافة ليست في الحقيقة نتاج شعب واحد ، وإنما نتاج البشرية كلها ، وهي بعد هذا كله من فضل الله على البشر جميعًا ، والبشر جميعًا هم "بني آدم" .

إن هذا الأصل يفتح الباب على مصراعيه أمام كل المستجدات والتطورات ، ويجعل الإفادة منها أصلاً إسلاميًا ، فليس هناك حرج ولا حساسية ، وإنما هو تطبيق لأصل جاء به القرآن وغفل عنه الأسلاف أو لم نكن ظروفهم تسمح بتفهمه بالصورة التي فهمتها دعوة الإحياء .

* * *

وهكذا نرى أن دعوة الإحياء الإسلامي قد توصلت إلى أصول ومبادئ إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية التي فرضت هيمنتها على الفكر الإسلامي منذ أن وضعت في القرون الأربعة الأولى للهجرة ـ أي منذ ألف عام ـ حتى الآن ، والتي تضمنت دون ريب خلاصة جهود أجيال بعد أجيال من المفكرين الإسلاميين وكانت ـ على المآخذ التي كشفنا عنها ـ متقدمة في وقتها ، ولكن هذا لا يشفع لها الآن بعد ألف عام ، وبعد ما وصلت إليه البشرية من تقدم مذهل في المعارف والثقافة والمعرفة يفقدها كل مميزاتها القديمة ، ولقد أراد الله تعالى لدعوة الإحياء الإسلامي أن تضع الأصول الجديدة لمنظومة المعرفة الإسلامية على أسس إسلامية تعود إلى القرآن الكريم الذي ألزمت به نفسه دون أن تضللها تفسيرات المفسرين ، وفي الوقت نفسه فإنها استفادت من تقدم العصر ، ومن تجربة البشرية التي كانت أشبه بروافد آثرت الفكرة وقربت ما بينها وبين العصر الحديث ، ملاحظة في ذلك توجيهات القرآن نفسه التي تلاقت مع أفضل ما انتهى إليه العصر ، وكما قلنا ، فإن هذا ما كان يمكن أن يتحقق لو أراد علماء الأزهر "المتخصصين" أن يقوموا به لأنهم سجناء تخصصهم من ناحية ، وبمفازة من عالم العصر الذي يعيشون فيه بأجسامهم دون عقولهم الحبيسة في عالم ألف عام مضت

فهم يفكرون بعقول الأسلاف وينظرون بعيونهم فلا يجدون ما يفيض به العصر الحديث .

ولا يمكن اتهام دعوة الإحياء الإسلامي أنها طوعت الإسلام ليسير مع مضامين الحضارة الأوروبية ؛ لأنها من الأصالة والثقة بحيث انتقدت "الإنسان الأوربي" كما سيرى القارئ في الفصل القادم ، وقدمت ما يمكن لو أخذت به الحضارة الأوربية أن تشفي من دائها العضال الذي يهددها بفناء قد لا يقتصر عليها ، ويمكن أن يأخذ معها العالم بأسره ، بل والكرة الأرضية نفسها .

دعوة الإحياء الإسلامي

ليست دعوة الإحياء الإسلامي هيئة أو مؤسسة ، أنها رؤية ، وبالأكثر إطار ، كل من يؤمن بها يصبح صاحبها .

ولكن من الخير أن يتعارف المؤمنون بها وأن يتواصلوا فيما بينهم لاكتساب المزيد من القوة وتوثيق العلاقات وتبادل الخبرات والمعارف .

ـ ٥ ـ

الفرق بين
الإنسان الإسلامي والإنسان الأوروبي

يمكن أن يستدرك علينا البعض فيقول إذا كان عنصر الجدة في دعوة الإحياء هو الإنسان ، فإن أوروبا قد أدركت ذلك من أقدم عصورها ، وقد كانت وثنيتها في حقيقة الحال دليل على ذلك لأن شعراءها هم الذين أوجدوا آلهة الأولمب في اليونان القديمة ، والتي ورثها الرومان بعد أن جعلوا القيصر إلهًا تقدم إليه القرابين ويحرق البخور أمام تمثاله ، وتحول هذا في العصر الحديث إلى الإنسان الأوروبي ، فليس لدعوة الإحياء فضل ، بل إن أوروبا سبقتها إلى هذا .

نحن نعترف بذلك ، إن أوروبا من أيام اليونان الأقدمين جعلت الإنسان مقياس الأشياء وهو المبدأ الذي عبر عنه الفيلسوف "كانت" بأن الإنسان غاية في ذاته ، وبفضل هذا الإيمان انطلقت أوروبا ، لا تلوي على شيء ، ولا يثنيها شيء في بناء حضارة الإنسان التي لا تعرف إلا الدنيا ولا تؤمن إلا بالإنسان فحققت حضارة رائعة ، وقفزت في مجال العلوم والفنون والاستكشاف والاختراع ورفع مستويات المعيشة إلى آفاق لم تدركها أي حضارة ، وجعلت الإنسان العادي يعيش عيشة الأرستقراطية القديمة ، واستخدمت العلم فحققت به معجزات الأنبياء السابقين ، فماذا يكون بساط سليمان أمام الطائرات الذاهبات بالألوف في عنان السماء والتي وصلت إلى القمر وحققت للإمبراطور المخبول كاليجولا أمله في أن يصعد إلى القمر .

إن الحضارة الأوروبية رغم كل المآخذ التي سنشير إليها من أعظم الحضارات التي شاهدها العالم ، إن لم تكن أعظمها ، وقد قاومت عوامل التحلل بفضل الحرية التي جعلتها تستكشف المآخذ أولاً بأول فتلاشيها ، ومع أنها في مُثُلِها تختلف عن مُثُل الحضارة الإسلامية ، فهناك ما يجمع بينهما

مثل احترام العقل وجعله الأساس ومثل تقديس العمل ومثل العناية بالحياة الدنيا ، وقد قصر المجتمع الإسلامي عن القيام في هذه كلها لأن استغراقه في الجوانب العبادية والفقهية للدين أدي لإهمالهما (العقل والعمل) وحال دون أن تكون الحياة الدنيا حافلة ، وعلينا أن نتعلم من هذه الحضارة ، ولا حرج في أن نقول أنها كانت أذكى منا ، كما أن إسلام دعوة الإحياء الإسلامي الذي يجعل الحكمة أصلاً يوجب اقتباس ما لم يأت به الإسلام أو ما لم ينص عليه ، وفي الوقت نفسه يحقق خيرًا كثيرًا ويكون علينا أن نقتبسه ونأخذه ، فما بالنا إذا كان المطلوب الأخذ به هو ما اتفق مع الإسلام ، ولكن قصر فيه المسلمون .

ومن أبرز نواحي النقص في الحضارة الأوروبية الشطط ، وإنعدام القوى التي تكبح جماحه ، لأن أوروبا آمنت أن الله إذا كان موجودًا فقد مات كما قال نيتشه ، ونظرت إلى الطبيعة كمادة تبني بها مجدها فتوغلت في أعماق الأرض بحثاً عن الفحم والحديد ، وأشعلت من النيران ما لم يشعل من قبل ، وسيرت في البحار السفن ، وفي السماء الطائرات ، وأقامت على الأرض العمارات ناطحات السحاب ، واجتثت الغابات ، واستأصلت أنواعًا من الحيوانات ، واستهلكت ما كان في البحار طوال العصور القديمة من أسماك أو حيتان ، ولم تستشعر نحو الطبيعة رحمة ، وكانت علاقتها بها علاقة استنزاف .

هذا الهوس بالتقدم ، والاستكثار جعل الحضارة الأوروبية متخمة سكرى بثمار العلم والفن ، لا تكاد تتذوق جديدًا حتى يأتي ما هو أجد ، وما هو أكثر أثرًا ، فأصبحت تدور في دائرة لا تنتهي من الاستمتاع ليلاً ، الذي تدفع ثمنه العمل المركز نهارًا ، مع زيادة في تكثيف كل ، وبعد بهرة الاستمتاع الأولى يتطلب الأمر مضاعفة الاستمتاع للحفاظ على مستوى الأول ، وهكذا أصبح الإنسان عبدًا لأهوائه ولإنجازاته ، أصبح التقدم للتقدم هدفاً ، ومادام كذلك فإنه لا ينتهي ، كان العالم القديم يشتكي دائمًا من الجوع فأصبح العالم الجديد يشتكي من التخمة ، واستمر التقدم واستمر الشطط لأنه

لا يمكن لقوة الإنسان أن تقوم بكبحها وأصبحت الحضارة الأوروبية أشبه بعربة جبارة تتقدم بقوة ، ولكن ليس لديها "فرامل" لأن مثلها العليا هي التقدم ، والاستكثار ـ أصبح الإله عبدًا لما صنعته يداه ـ

وهناك جانب آخر ، إن هذه الحضارة التي جعلت القوة شعارها لتظفر بما تريد ، ولتنتصر على الحيوان وعلى الطبيعة ، وعلى الإنسان الذي ينافسها ، أدى بها للتركيز على صناعة أسلحة القوة ، أي السلاح ، وتضخمت صناعة السلاح واكتسبت أهمية مرموقة وأصبحت الصناعة الأولى في الاقتصاد الأمريكي ، والجانب المأساوي لهذه الحقيقة لا يخفى ، فماذا تعني صناعة السلاح إلا المدافع والبنادق والقنابل وحاملات الطائرات التي استغنت بها أمريكا عن الحصول على مواقع ثابتة في مختلف الدول ، لأنها أشبه بالجزر العائمة ، وتنطلق من على سطحها سبعون طائرة على الأقل ، وماذا يعني هذا إلا التدمير والتخريب وهدم المنشأت والمرافق والقضاء على البنية التحتية حتى تعود الدولة التي تستهدفها إلى ما قبل الثورة الصناعية الأولى ، ماذا يعني إلا الموت والقتل الذي لا يقتصر على الجنود ولكنه يلحق بالآمنين من نساء وأطفال ، لقد بلغت ضحايا الحرب العالمية الأولى قرابة ثلاثين مليوناً وارتفع في الحرب العالمية الثانية إلى خمسين مليوناً ، ففي أي حضارة إنسانية يرتهن الاقتصاد بصناعة التدمير والقتل والخراب ، هل هناك مأساة أكثر من هذا ؟

إن هذه المخاطر لا يمكن أن تلحق بحضارة الإنسان الإسلامي لأن الإسلام وإن كان يدعو للعمل ويشجع الإقدام بما تعبر عنه الآية "فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" ، فإنه حدد الاستباق بـ "الخيرات" ، كما وضع ، مجموعة من الضوابط التي تحول دون الانطلاق المجنون الذي أوقف حضارة الإنسان الأوروبي على شفا خطر عظيم ، والإنسان الإسلامي يتقبل هذه الضوابط لا بحكم السلطة القاهرة ولكن بحكم إيمانه الطوعي وتبينه الحكمة فيها وأن مصلحة الفرد لا يجوز أن تحيف على مصلحة المجموع ، وقد أكد القرآن الكريم حرية الإنسان في الاختبار ، كما أن الاستخلاف يتضمن بطبيعته أن

تكون العلاقة ما بين الإنسان والطبيعة التي سخرها لـه ، هي علاقة ائتمان بحيث لا ينظر إليها الإنسان المستخلف كمجرد مصدر يستنزفه ، ومن أجل هذا فإن القرآن جعل الاستباق "للخيرات" وليس فيما يضر البشرية سواء كان تسليحًا يهددها بالموت والدمار ، أو مآثم تشيع الفاحشة والانحلال وتهدم في مناعة وإرادة الشخصية الإنسانية .

ومفهوم بالطبع أننا عندما نتحدث عن الإسلام فإننا نعني إسلام دعوة الإحياء الإسلامي الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليرفع عنهم إصرهم الأغلال التي عليهم وليس إسلام الفقهاء الذي يقوم على التقليد وعلي تطبيق أحكام الأسلاف .

على أن فكرة استخلاف الإنسان نفسها ووحدها تتضمن ما قد يفوق هذا كله ، أنها تعني أن بين الإنسان والله وشيجة قوية ، وصلة حميمة وثقة من الله في الإنسان إلى درجة تجعله خليفة له ، يأتمنه على كل ما في الأرض من قوى وموارد ، فأي شرف أو تكريم أو اعتزاز يماثل هذا ، وفي الوقت نفسه أي مسئولية كبيرة ضخمة يعنيها القيام بهذه الرسالة ، والحرص على أن يحظى بثقة الله ورضاه عنه ، هذه العلاقة ما بين الإنسان والله ، وما بين الإنسان والطبيعة تجعل حياة الإنسان راضية متناغمة ، إن هذه المسئولية الضخمة التي يمتزج فيها تطبيق المشيئة الإلهية بتعمير الأرض وإثراء الحياة دون أن يذهب التقدم المادي بصفاء الفكر أو سلام النفس ، وأن تكون علاقة الإنسان بالجميع ، وبالطبيعة علاقة محبة وسلام ، إن هذا من أكبر ما يميز الإنسان الإسلامي عن الإنسان الأوروبي الذي استبدت به إرادة القوة والتفوق وأعطته طابعًا عنصريًا أوروبيًا وأقامت العلاقة ما بينه وبين الآخرين سواء كانوا بشرًا أو بيئة على أساس استحواذه وانتصاره وفرض مشيئته.

هل يعقل أن يتسلل إلى حياة الإنسان المسلم الراضية المرضية اغتراب أو اكتئاب أو ملل أو ضياع ، أن هذا إنما يحدث للإنسان الأوروبي لأنه لا يعرف الله ، ولا يأبه للأديان وهو يدفع ثمنه اكتئاباً وإحباطًا .

- ٦ -

الديمقراطية والتنمية
عبر إسلام الإنسان

لا يمكن تجاهل موضوعين على أعظم جانب من الأهمية ، هما موضوع الديمقراطية والتنمية اللذين يمثلان أعظم تحدي سياسي واقتصادي للدول الإسلامية ، وقد وجد في المجتمعات الإسلامية من يشيد بالديمقراطية ويرى أنها تتفق مع الإسلام كما وجد من يرفضها ، ويرى أنها تختلف عن الإسلام ، والحقيقة أن الديمقراطية تتفق مع الإسلام في بعض جوانبها ، ولكنها تختلف عنه في جوانب أخرى ، وعوامل الاتفاق ترجح عوامل الاختلاف ، فضلاً عن أننا بمعيار الواقع نقول أن الديمقراطية هي أصلح النظم السياسية على الساحة ، وأنه لا يفضلها إلا الصورة التي تقدمها دعوة الإحياء لها بحيث تأتي الديمقراطية عبر إسلام الإنسان .

فالديمقراطية تدين بوجودها الأول إلى المجموعات النشطة والطموحة من الحرفيين والتجار الذين ظهروا في الفترة الأخيرة للقرون الوسطى في أوروبا ، عندما كان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات ، ففي القاعدة الطبقة الدنيا التي كانت تضم الأغلبية العددية الساحقة للشعب من أرقاء أو أقنان أو مستأجرين يرتبطون بالأرض ويعملون في خدمة النبلاء أو حرفيين يرتبطون بالصناعة اليدوية .

وفوقها الطبقة الوسطى من صغار التجار والمثقفين والموظفين وأصاغر رجال الدين ومهرة الصناع الذين توصلوا بالدأب والمهارة لأن يكونوا رؤساء طوائف أو "معلمين" أو يتحولوا إلى التجارة .

وفوقها الطبقة العليا ـ طبقة النبلاء ـ التي يتسنم قمتها الملك ، وكبار الأساقفة والمطارنة وقادة الجيش وكبار التجار .

وكان هذا المجتمع الطبقي يترابط بأفكار وأوضاع تتغلغل من أعمق أعماقه حتى أعلا ذراه ، فهناك الإيمان الذي وصل إلى قوة البداهة والطبيعة والإرادة الإلهية من كل طبقة بسلامة هذا الوضع ، فالطبقة الدنيا آمنت كل الإيمان بأنها دون الطبقة العليا وسلمت بذلك تسليم من يرى فيه قدرًا مقدورًا ومصيرًا محتومًا ، وأساغته بحيث لم تستشعر غضاضة عندما كان يطلق عليها في غير ما تحرج Lower order ، لأن كل فلاح كان يؤمن بأن اللورد هو سيده الطبيعي ، وأن الله قد رفع الناس بعضهم فوق بعض طبقات .

وقد تصور قوة التزام الطبقة الدنيا تجاه الطبقة العليا القانون الذي أصدره الملك اثلستان (٩٢٥ـ٩٤٠) في إنجلترا وكان يوجب على كل قروي أن يربط نفسه بالولاء إلى حد اللوردات ، أو كما يقولون Commended himself وبذلك تنشأ علاقة ولاء يصبح القروي بها "مولى" النبيل ، ورجله ، وتابعه .

وكان التحام الحقوق بالواجبات واستشعار كل طبقة لهما ، وعدم إخلالها بالواجبات التي كانت تستمد قوتها من قداسة العقيدة وعراقة العرف ، من أهم العوامل التي كفلت لهذا النظام البقاء والقوة ، ففي هذا المجتمع ، وفي هذا العصر لم تكن الطلبة الأولى للطبقات كلها هي الحرية ، ولكنها الأمن والعدالة ، وكانت كل طبقة تقوم بها للطبقة الأقل منها ، وافترض أن الله سيحققها للملك ، وهو قمة الهرم الطبقي ، وكانت فضيلة الطبقة الدنيا في الرضا والقناعة ، وفضيلة الطبقة العليا في القيام بمسئوليات السيادة .

وبتوالي الزمن أخذت تظهر عوامل تؤدي إلى تغير هذه الأوضاع وتفتح ثغرات في هذا المجتمع الطبقي المحكم ، ولعل أبرزها الحروب الصليبية ، فقد حطمت الأبواب والسدود ، وانسابت الجنود من الفلاحين والأرقاء والأقنان التي لم تكن تحلم بمغادرة قراها إلى عوالم جديدة ، واطلعت على الشرق الذي كان سابقاً لأوروبا وقتئذ ومتقدمًا عليها ،

فتصدعت الأسوار والحواجز التي كانت تفصل الطبقات والقرى بعضها عن بعض وظهرت روح جديدة لم تكن موجودة ، وعرفت سلع لم يكن للمجتمع الأوروبي عهد بها ، واحتاج النبلاء إلى المال لشراء هذه السلع أو لتجهيز الجيوش ، وعند هذه النقطة بدأ تحول خطير ، فقد ساوم النبلاء أتباعهم على إعفائهم من التزامات القنانة وتحريرهم من قيودها لقاء دفع مبلغ من المال ، وصادف ذلك هوى من الأقنان الذين استطاعوا بتقتير القروي التقليدي توفير مبالغ من المال أخذوا يقدمونها للنبلاء .

وسارت هذه الخطوة التي سميت حركة البدل أو المكاتبة Commutation movement حثيثاً قرابة قرنين أو ثلاثة واستطاع بفضلها عدد كبير من القرويين الأقنان أن يظفروا بحريتهم ، وأن يصبحوا مزارعين أحرار .

على أن الخطوة التالية كانت أهم ، فإن بعض المزارعين والحرفيين أرادوا التخلص نهائيًا من سيطرة اللوردات ورأوا أنهم يستطيعون ذلك لو نزحوا إلى ناحية غير مأهولة أو لاذوا بالقلاع المهجورة التي كانت الطبقة العليا قد أقامتها للدفاع عن البلاد ، وكانت تسمى "بورو" Borough وتعاقدوا مع الملك أو النبيل "حسب تبعية هذه الأرض" على أن يحررهم من كل الالتزامات الإقطاعية ويمنحهم امتيازًا Charter يثبت فيه ذلك لقاء دفع مبلغ من المال إما مرة واحدة أو على أقساط ، وفي كلتا الحالتين تصبح هذه "البورو" بندرًا أو بلدة حرة Free burg ، ولما كان المبلغ الذي يدفع عادة أكبر مما يطيق دفعه فرد واحد فقد كان يقسم على الجميع ، ويقدمه البندر كهيئة ، وهذا هو الأصل في فكرة المسئولية الاعتبارية للهيئات ، كما أن ذلك استلزم انتخاب المسئولين عن البندر الذين يقومون بجمع هذا المال وتسليمه ، فظهرت كذلك فكرة الانتخاب والتمثيل النيابي ، ومن هاتين الفكرتين تفرعت أوضاع اللامركزية التي تتسم بها الإدارة المحلية البريطانية .

وأهم من هذا كله أن ، البندر كان المحضن الدافئ لمجتمع لا يستهدف أساَسًا وبالدرجة الأولى ، الأمن والعدالة والنظام والاستقرار ، ولا يقوم على

الالتزام ، والماضي ، ولا تكون العلاقة التي تربط الفئات هي العلاقات العضوية ، ولكنه يستهدف الحرية والمنفعة والربح والمستقبل ويكون الفرد هو المحور القوي له والتعاقد الحر وسيلته وإن كانت شخصية الفرد المستقل في هذه الفترة كانت لا تزال كالطفل في "اللفة" .

هكذا ولدت الديمقراطية ، وقد حملت من ميلادها أبرز خصائصها أنها تقوم على الفرد ، وأنها تستهدف الربح ، وأن المناخ الذي تعيش فيه هو الحرية ، وأن الارتباطات تعاقدية ، وأنها هي "البورجوازية" من الناحية الطبقية ، و"الرأسمالية" من الناحية الاقتصادية ، وهذه هي أهم جوانبها ، وأخيرًا فإنها الواجهة السياسية للرأسمالية التي ظهرت باسم الديمقراطية ونقلت إلى الديمقراطية أسس النظام الرأسمالي ، فالمواطنون هم الأفراد والأحزاب هي الشركات "والأصوات" في الجمعية العمومية لهذه الشركات هي الأصوات في البرلمان ، وإذا كانت الرأسمالية تستهدف الربح فإن الديمقراطية تستهدف "السلطة" ، وهي تتفق مع الرأسمالية في بعدها عن المبدئية ، وأنها بحكم كونها تقوم على الفرد وتستهدف الربح فإنها تمثل "الأنانية" والوصولية وعدم اعتبار العدالة أو الرحمة ، ومع أن قواعد اللعبة في الرأسمالية لها أصول ، ولكن الانتهازية من قواعد هذه اللعبة .

والحقيقة أن كل سوءات ، وأيضًا حسنات الديمقراطية هي حسنات وسوءات الرأسمالية ، وقد أظهرت الرأسمالية الحركة النقابية وأظهرت الديمقراطية الحركة الاشتراكية وسمحت للطموحين بالبناء والإضافة ، وللوصوليين والانتهازيين بالكسب والاستفادة .

ولا جدال أن فكرة الأمة مصدر السلطات مبدأ عظيم ، وأن فكرة الحوار والتداول في معالجة القضايا السياسية هي أيضًا من أساسيات التقدم ، ولكن النقص في الديمقراطية هو فلسفتها اللامبدئية ، وبعدها عن العدالة وأنها نقلت من الرأسماليين الآليات التي وضعتها لممارسة السلطة ، فأصبحت الأحزاب للشركات ولم تعد عملية سياسية بقدر ما أصبحت عملية اقتصادية

يفوز فيها من هو أكثر مالاً وأعظم قدرة على التأثير بفضل ما لديه من وسائل .

إن فكرة اللامبدئية وما تتسم به من "وصولية" وقصور الأحزاب والانتخابات على أساس الدوائر الانتخابية هي ما يتوقف فيه الفكر السياسي الإسلامي ، فالامبدئية تختلف عن صميم الإسلام الذي هو أولاً وقبل كل شيء "مبدئي" ، وكما أن قصور نظام الأحزاب والانتخابات على أساس الدوائر هو ما تثبته يومًا بعد يوم الأخبار ، وأن الانتخابات سواء عقدت في أفريقيا أو أوروبا أو أمريكا لابد وأن يتطرق إليها التأثير المالي ، ولابد أن تصاب بدرجة من التزييف ، مما أصبح حقائق لا يمكن الشك فيها وتفرض البحث عن بديل .

لقد جعل نظام الأحزاب والانتخابات السياسة لعبة حزبية تشغل المسئولين عن القيام بمسئولياتهم القومية وتعرض النظام لوقوعه تحت سيطرة قوى هيئات الضغوط والمصالح الفئوية والاتفاقيات الحزبية مما يحول دون تحقيق النهضة ، ومع أنها حررت الإنسان من القيود السياسية ، إلا إن أوضاعها الاقتصادية أخضعت الإنسان بسياسة الرأسمالية واستعبدته بالقدر الكبير من السلع التي أنتجتها وجعلتها ـ بفضل الإعلان ـ من مقتضيات الحياة الحديثة فأوقعت الإنسان في شبكتها .

إن الإسلام يضع بدلاً من "اللامبدئية" السياسية "حكم القانون" ، وبدلاً من الأحزاب وانتخابات الدوائر الجغرافية ، يقدم الإسلام تنظيم "أهل الحل والعقد" الذي يتكون من مندوبي الهيئات الشعبية كالنقابات والجمعيات والمنظمات التي تجمع كل فئات الشعب وهؤلاء المندوبون قد انتخبتهم قواعدهم بطريقة تبرأ من عيوب الانتخابات على أساس الدوائر وقد كانت هذه هي الوسيلة التي دعا إليها الاشتراكيون في روسيا ، والتي قامت بانتفاضة عام ١٩٠٥ وثورة مارس عام ١٩١٧، ويطلق عليها السوفيتيات ، أي مندوبي العمال والفلاحين ، وعندما جاء لينين في أكتوبر ١٩١٧ أعلن

أن "كل السلطات للسوفيتيات" فكسب تأييدها ، ولكنه عندما سيطر على الحكم غدر بها لحساب الحزب الوحيد الحاكم .

وفي الوقت نفسه فإن النظام الإسلامي الذي يُعد العدل طابعه العملي يفرض على النظام السياسي أن يحقق العدالة ، وقد فرض الإسلام الزكاة لتحقيق هذا الهدف قبل أن تتنبه كل النظم السياسية الحديثة إلى فكرة الضمان الاجتماعي والتأمينات ، ويفترض أن توضع على أسس حديثة وأن يتبع فيها ما اتبعته دعوة الإحياء الإسلامي من استبعاد الفقه القديم ووضع ترتيبات والآيات تحقق الفكرة فيها دون أن تتقيد بالحرفيات أو التفاصيل بحيث تكون الدولة دولة الرعاية .

ومن صميم الإسلام أن الملكية وظيفة ، وأن سوء استغلال هذه الوظيفة يقضي على حق الملكية ويخضعه للمصلحة العامة ، فمع التسليم بحرية الاقتصاد من ناحية المبدأ فإن من الضروري وجود لجنة عليا للإشراف على سياسة الإنتاج ووضع الخطوط التي يجب أن يلتزم بها الرأسماليون ويكيفون رأسماليتهم ، بدلاً من أن تتكيف الدولة طبقاً لرأسماليتهم .

وقد شرحت دعوة الإحياء الإسلامي في بحوث عديدة الفكرة التي طرحتها لاستكمال نقص الديمقراطية ، سواء كان بتطبيق سيادة القانون أو تعيين الآليات الجديدة التي تحل محل الأحزاب ونظم الانتخابات على أساس الدوائر أو ضمان أن يسير الاقتصاد لخدمة الشعب وتحقيق مصالحه الرئيسية ، وأوردت الانتقادات التي عرضها أرسطو وأفلاطون على الديمقراطية الإثينية وأن يكون "الحكم بالأصوات" وطلبهما الحكم بالقانون .

* * *

ولا تقل أهمية قضية التنمية ، وأفضل ما يمكن أن يقال في هذه الموجز هو ما جاء في إيماننا" وهو المبدأ السابع من المبادئ العشرة لدعوة الإحياء الإسلامي ، وجاء فيه :

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا واجتماعيًا ، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية ، تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها ، ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية ، تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها بوضع القوانين اللازمة لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها ، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى.

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوربية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط .

وبالمثل ، فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات تتسم ببيروقراطية وجمود ودون أن يكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيري أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل .

- ٧ -

إخواننا الأقباط

لا يمكن لمشروعنا الحضاري أن ينسى أن لنا شركاء يتفقون في المواطنة ويختلفون في الدين هم "الأقباط" الذين يقدر عددهم بعشرة ملايين (تقدير البابا في مقابلة تليفزيونية) ، ويتميز الأقباط عن الأقليات الأخرى أنهم جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع المصري على مر العصور ، كما قد يتميزوا بأن الاعتراف بالكنيسة المصرية إنما جاء على يدي عمرو بن العاص ، لأن السلطة البيزنطية التي كانت تحكم مصر كانت ترفض المذهب الأرثوزكسي ، ومارست أنواعًا عديدة من الاضطهاد حتى لاذ البطريرك بنيامين بالصحراء هاربًا ، ولما دخل عمرو بن العاص وهزم البيزنطيين اعترف بالكنيسة ومنح البطريرك كافة حقوقه وسلطاته ، وكان هذا ميلادًا جديدًا للكنيسة المصرية يفترض أن يكون في أصل العلاقة ما بين مصر الإسلامية وأقباطها ، وفي مقابل هذا وقبله بقرون عديدة أصبحت المصرية هاجر أمًا للعرب جميعًا لأنها أم إسماعيل الجد الأعلى للرسول ، وكانت قد أبعدت إلى الحجاز بأمر من سارة زوجة إبراهيم العاقر عندما تملكتها الغيرة لأنها قد أنجبت لإبراهيم ما عجزت هي عنه (وقد عوضها الله بعد ذلك بالإنجاب فولدت إسحاق ، ومن إسحاق جاء يعقوب وهو إسرائيل) ، نقول إن هاجر المصرية الأصل هي التي وضعت بعض مناسك الحج الإسلامية عندما سعت ملهوفة تبحث عن الماء لوليدها حتى عثرت على زمزم ، وأعجب من هذا أن هذه القصة كادت تتكرر عندما أنجبت مارية القبطية لرسولنا العظيم إبنا بعد أن فقد أبناءه من خديجة وسماه الرسول إبراهيم ، ولكن إبراهيم لحكمة إلهية توفى طفلاً ، وهذه العلاقة هي التي جعلت الرسول يوصي المسلمين بالقبط "لأن لهم صهرًا" .

هذه الوقائع التاريخية تثبت "خصوصية" الأقباط والعلاقة التي تربطهم بالمسلمين ن وأنها كانت جديرة بأن توثق العلاقات وتقيمها على

أساس المحبة ، والحقيقة أن هذا قد حدث مرارًا ، ولكن ظلمات القرون الوسطى التي أشاعت التمييز الديني في كل الديانات ، ألقت سحابة مظلمة على هذه العلاقات وإن لم تكن مقصورة على الأقباط لأنها شملت المسلمين ، وظللت المجتمع المصري في بعض الحالات وأطبقت على المسلمين والأقباط معًا ، ولكن الحقيقة أنها كانت طارئة لأن جذور الاتفاق التي أشرنا إليها كانت أكثر عمقاً من عوامل الاختلاف ، ولأن الإيمان الإسلامي المصري كان يحكم الطبيعة المصرية الدمثة بعيدًا عن العنف والتطرف أو التعصب ، فكان يجمع بين المصريين مسلمين وأقباط ولا يساير سياسة الحكام الظلمة ، ولا المتعصبين الإسلاميين ، وكان شيوخ الكنيسة وآباؤها في معظم الحالات يتسمون بذكاء وكياسة ، وعندما انتهت ظلمات القرون الوسطى ودخلت مصر مرحلة العصر الحديث مع محمد علي ، دخلت في مرحلة مدنية ، ولم يعد الدين هو المسيطر على الحياة ، وكان محمد علي والراشدون من خلفائه على علاقة وثيقة بالكنيسة يتبرعون لها بالأراضي والمال ويوقرون البطاركة ، كما كان البطاركة يسلكون سلوك الرعية المخلصة لراعيها والذي تدين له بالولاء .

وأهم من هذا أن هذا الموقف هو الموقف المسيحي الأصولي الذي قرره السيد المسيح عندما قال "مملكتي ليست في هذا العالم" ، وتنبه إليه عظيما المسيحية بطرس وبولس .

قال مار بولس : "لتخضع كل نفس للسلاطين العالية فإنه لا سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة إنما رتبها الله ، فمن يعاند ترتيب الله ، والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم ، فلذلك يلزم الخضوع للسلطان" ، وقد جاءت هذه الكلمة في رسالة مار بولس الموجهة إلى المسيحيين الرومانيين الذين كان يحكمهم في ذلك العهد نيرون عدو النصارى ، ويعلق المونسينور باسيليوس موسى وكيل الأقباط الكاثوليك في مصر سنة ١٩٢٠ على هذه الكلمات "فكأن بولس إذن يقول ليس لكم يا مسيحي روما عدو ألد من نيرون ، ولكن بما أنه صاحب السلطة الشرعية فيلزمكم من باب الذمة

والضمير أن تخضعوا له ، وقد أمر مار بولس الأسقف طليطي أن يذكر الشعب بوجوب الخضوع للرئاسات .

وما علّمه بولس فقد علّمه بطرس رأس الحواريين ، إذ قال : "فاخضعوا إذن لكل خليفة لها عليكم سلطة شرعية ، وأما للملك فكالأعلى (أي مثل الأعلى) وأما للولاة فكالمرسلين من قبله ؛ للانتقام من فاعلي الشر وللثناء على فاعلي الخير" .

وطبقاً لهذا المبدأ ، فما لم ترغم السلطة المسيحيين على الإيمان بما يخالف عقائدهم ، كأن يقدموا القرابين لتمثال الإمبراطور ، فإن على المسيحي أن يخدم الدولة بإخلاص ، وقد حارب فيلق مسيحي في الجيش الروماني قبل أن يلزموهم بتقديم القرابين أما بعدها فقد رفضوا .

وهكذا نرى أن الموقف الأصولى الذي أمر به السيد المسيح وأكبر الرسل بطرس وبولس كان يفرض على المسيحيين الطاعة المطلقة للحكم في البلاد التي يعيشون فيها وأن معظم آباء الكنيسة المصرية فهموا هذا ، كما كانت الأواصر ما بينهم وبين السلطة ، خاصة عندما بدأت مصر العصور الحديثة ، أواصر ممتازة ، وقد فطنوا إلى أنهم كأقلية لا يمكن أن يكسبوا بالتحدي ، أو بإبراز الورقة القبطية ، ولكن بالولاء الكامل للدولة شأن كل مواطن ، وفي الوقت نفسه دخول الأبواب المفتوحة : العلوم ، الاقتصاد ، فهذا ما يدعم وضعهم دون أي احتكاك أو تماس مع الدولة ، وكانت النتيجة أن كسب الأقباط في الاقتصاد وفي مجالات التخصص العلمي ما يفوق نسبتهم العددية بمراحل ، ولم يثر هذا حساسية من الأغلبية المسلمة لأنه حدث تحت لواء المواطنة ، وعندما كانت تحدث احتكاكات بين بعض الجهلاء من الفريقين الأقباط والمسلمين كان الآباء يحلونها بسرعة بدبلوماسية وتفادي الاحتكاك مع السلطة حتى لا يؤثر هذا على ما توصلوا إليه من مكاسب ، ويثير قضية وضعهم .

ولكن حدث تغيير في هذه العلاقات الطيبة ما بين الأقباط والمسلمين في سبعينات القرن الماضي عندما ظهرت ثلاثة عوامل أدت إلى التغيير ، وقد

ظهرت في وقت واحد ، الأول : هو تولي البابا شنودة بطريركية الأقباط ، والثاني : هو ظهور جماعات الرافضة الجديدة بين الجماعات الإسلامية التي تلجأ إلى العنف وتكفر من يخالفها وتستبيح أمواله ، والثالث : هو تولي أنور السادات رئاسة الجمهورية .

ومع أن العاملين الثاني والثالث كان لهما أثرهما ، فإن العامل الأول كان أقواها فقد عرف البابا شنودة بالطموح ، وكان قد فاز على مرشحين اثنين حاز أحدهما من الأصوات أكثر مما حازه الأنبا شنودة ، ولكن الأنبا شنودة كسب المنصب بفضل "القرعة الهيكلية" ، ولعله تصور أن هذه هي الإرادة الإلهية ، وكان فيه طموح وطبيعة القائد السياسي ، وليس الراعي الروحي ، وقد وجد أمامه مملكة كاملة هو ملكها المطلق ، وحدثت وقتئذ فتنة عارضة في الزاوية الحمراء ، ولو سلك البابا شنودة المسلك الأصولي ، ولو حذا حذو أسلافه لحل هذا الاحتقان بدبلوماسية ، أو حتى بالتغاضي عنه حتى لا تثير قضايا أكبر منها ، ولكن البابا القوي رفض هذا وأرسل كتيبة من الكهنة في مساء فتنة الزاوية الحمراء وأمرهم أن يؤدي صلواتهم جماعة وأن يتصدوا للبوليس حتى لو ماتوا جميعًا ، وقررت السلطات الأمنية إمرار هذا الموقف حتى لا تثير أزمة ، ولما ظهرت فكرة إصدار قانون للردة ثار الباب وجعل الأقباط يعقدون مؤتمرًا أسوأ من المؤتمر الوحيد الذي عقدوه بدفع الإنجليز سنة ١٩١١ ، وأرادوا ليَّ يد الحكومة وإخضاعها ، ورد السادات بإلغاء القرار الخاص بتوليته البابوية ونفاه إلى أحد الأديار النائية ، وكون مجلسًا من الأساقفة تدير الكنيسة ، ولا أعتقد أن أي حاكم آخر كان يسلك مسلكاً غير ما سلكه السادات وبعد أن اغتيل السادات ، أعاد الرئيس مبارك البابا الذي واصل سياسته .

وفي خلال هذه الفترة أثار الأقباط "مطالب الأقباط" ، وكان أكثرها إلحاحًا السماح لهم ببناء الكنائس التي كانت خاضعة لأمر همايوني يعود إلى أيام السلطة العثمانية ، وأن يمثلوا في المجلس التشريعي ، وأعتقد أن البيروقراطية والهاجس الأمني كانا هما اللذان حالا تحقيق المطلب الأول ،

وأن طريقة الانتخابات هي التي حالت دون المطلب الثاني ، فالأقباط أقلية في كل دائرة انتخابية ، ومن الطبيعي أن لا تنتخب الأغلبية المسلمة نائبًا قبطيًا ما لم يكن ذا منزلة ممتازة تسودها المحبة والألفة ، ولكن البابا كان قد سمم الآبار ، فلم يظهر مثل هذا النائب .

وعلى كل حال يمكن القول أن هذين المطلبين لهما وجاهة ، وكان يجب على الدولة أن تعني بهما بطريقة أكثر حسمًا بحيث لا تعطلهما البيروقراطية .

ولم تقتصر سياسة البابا على علاقته بالسلطات وتحرشه بالاتجاهات الإسلامية ، وأنه حكم الكنيسة نفسها بيد من حديد ، وتمكن من ذلك لأنه سلك مسلك السياسيين فأنشأ أسقفيات جديدة ووضع على رأسها أتباعه بحيث أصبح حاكمًا بأمره ، والحقيقة أن السلطات التي يتمتع بها لا يتمتع بها أي حاكم دنيوي آخر ، فلا أحد يراجع ميزانية الكنيسة الضخمة ، ولا أحد يراجع سياسته الروحية لأنه يُعد ممثل المسيح ويملك سلطة التحريم ، وكان هناك مجلس ملي له استقلاله يتولى الشئون المدنية للأقباط كالأوقاف والتعليم ، وتوصل في يوم من الأيام إلى أن يستخلص من الخديوي أمرًا بنفي البابا ، ولكن الأنبا شنودة عندما حان أوان انتخابات المجلس المحلي وضع قائمة بأسماء المرشحين فنجحت باعتبارها قائمة البابا ، ولم يكتف بهذا ، بل أنه منحهم جميعاً درجة كهنوتية ، فأصبحوا رعايا بالنسبة لهم وفقدوا استقلاليتهم ، وعامل معارضيه بقسوة وتابعهم حتى الموت فأمر أن لا يصلي عليهم ، وقد ثارت المجموعة المفكرة من الأقباط على البابا ، وطالبوا بإدارة ديمقراطية للكنيسة .

وليست "مطالب الأقباط" هي أسوأ ما في الأمر ، لأن المطالب موضوعات محددة ، صلبة ، يمكن الإمساك بها ، وأنها أيضًا عندما توضع في مقابل "مكاسب الأقباط" تفقد كثيرًا من وزنها .

إن أسوأ ما في القضية هي إرهاف الحاسة القبطية بصورة تجعل أي إشادة بالإسلام ، إنما تتم على حساب المسيحية ، وأن الواجب أن تذكر إشادة

بالمسيحية جنبها ، وما أن كتب الرئيس السادات اسمه الكامل محمد أنور السادات حتى انتصبت قرون الاستشعار لدي الأقباط ، وما أن يقول أنا حاكم مسلم لدولة مسلمة حتى يندب ويلطم الأقباط ، ويثيرهم وجود مؤسسة كالأزهر ، أو إذاعة للقرآن الكريم ويدفعهم للمطالبة بالمثل ، وعندما أثيرت قضايا التعديلات الدستورية طالبوا بإلغاء المادة الثانية التي تنص على "مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الأساسي للتشريع" واقترحوا صيغة تذكر فيها المسيحية حيث الإسلام[١] .

وما يجعل قضية "الحساسية الدينية" هذه خطيرة هي أنها تعزل قسمًا ولو صغيرًا عن الجزء الآخر للأمة ، مما يؤدي إلى ازدواج في تكوين الأمة يظهر في تكرار الشيخ والقسيس ، المسجد والكنيسة ، البابا وشيخ الأزهر ، وظهورهما معًا في الاحتفالات العامة ، مما يوحي بازدواجية في الأمة ، وتكون على حساب الوحدة ، وقد لا يقتصر على ذلك ، بل يصل ببعض الأقباط إلى نوع من الكراهية والعزوف للآخر ، كما هو الحال فيما يقال عنهم "أقباط المهجر" .

ومن يقارن المسلك الذي كان الأقباط يسلكونه واللغة التي يتحدثون بها إلى المسلمين قبل أن يسمم البابا شنودة أبار المحبة ، يجد فرقاً شاسعًا ، واستشهد بما كتبه الكاتب الدكتور مريت غالي ، الكاتب القبطي المرموق وسليل أسرة "عميد الطائفة" ، فقد كتب على غلافه تقرير "تقرير مرفوع للمسئولين في الدولة ، وأحبائي من المسلمين لتعميق أواصر المحبة والتعاون والوحدة الوطنية على أساس من الواقع العملي" ، وهو ما ينم عن عاطفة خالصة قدر ما ينم عن كياسة وتهذيب في صياغة الخطاب ، ويعزز هذا ما جاء في التهميد "قد يسوءني أن أتكلم عن أكثرية وأقلية في بلدي ،

---

(١) أننا كنا أيضًا من المطالبين بإلغائها ، ليس لما ذهب إليه الأقباط ، ولكن لأننا نؤمن أن دين الدولة هو خدمة الشعب ، وأن طبيعتها مدنية ، وأي خلط يميع ذلك ، فضلاً عن أن التجربة التاريخية تثبت أن الجمع ما بين الدولة والدين يمكن الدولة من استغلال الدين ولا يفيد الدين في شيء .

ثقيل على نفسي حقًا ، وقد دخلت في السبعينات من عمري أن اضطر للمطالبة بحقي وبحق الأقلية في العدالة والمساواة ، موضوع طالما تحاشيت التعرض لـه ، لأني كنت ولا أزال مشبعًا بنظرة وطنية مصرية خالصة، فعنيت بتطلعاتي نحو أمة راقية ووطن منيع ودولة قادرة على إسعاد الشعب ، وكتبت في هذا ما كتبت بعيدًا عن أي اعتبار طائفي .

ولا يسعني إلا أن أصارح بأني طوال حياتي ـ في الأشغال المختلفة التي قمت بها ، والميادين المتعددة التي عملت فيها ، والأوساط المتنوعة التي كنت ولا أزال متصلا بها ـ لم أصادف شخصيًا سوى كل تكريم واحترام وحسن معاملة ، بل ومودة عن إخواني المسلمين قبل الأقباط ، وروح من الإخاء والتفاهم كانت أكبر عون لي للمضي في حياتي محتفظًا بشيء غير قليل من التفاؤل في الناس ، ومعتقدًا أبدًا أن قول الحق لابد أن ينفذ إلى العقول والقلوب إن آجلا أو عاجلاً .

لست أرفض كلمة مكرم عبيد : "إني مسيحي دينًا ومسلم وطنًا"، كما لا أرفض كلمة سلامة موسى : "إن الإسلام دين بلدي وواجبي الدفاع عنه" ، بل أجد في عقلي من السعة وفي قلبي من السماحة ما يهيئني لقبول هذا المعنى وأنا مطمئن الضمير ، فأقول إنه علي أن أدافع عن الإسلام لأن المسلمين إخوتي في الكتاب وفي المثل العليا ، وانتظر بدوري أن يدافع أخي المسلم عن المسيحية ؛ لأن المسيحيين إخوته في الكتاب وفي المثل العليا " انتهى الاستشهاد من الأستاذ مريت غالي .

ونحن نأمل أن تعود الكنيسة القبطية ، مع نهاية حقبة البابا شنودة ، وطي "الشنودية" إلى الخيار الأصولي المسيحي وإلى ما اتسم به آباء الكنيسة في الماضي من الكياسة بحيث تتحقق كل "مطالب الأقباط" دون إيجاد تلك الحساسية المقيتة .

ـ ٨ ـ

محصلة المشروع في سطور

إن محصلة مشروع الإحياء الإسلامي إذا أردنا إجماله كمبادئ وأسس عامة في سطور محددة ، مع ملاحظة أن مصدرها ـ بصفة رئيسية ـ القرآن هي :

(١) الإنسان المستخلف هو الغاية التي جاء لها الإسلام ، فالإنسان هو الغاية ، والإسلام هو الوسيلة .

(٢) المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس جميعًا ، وبلا استثناء ـ كائناً ما كان ـ هي أساس مجتمع الإنسان المستخلف .

(٣) العقل ، وما ينشأ عنه من علم ومعرفة هو ما يميز الإنسان وما جعل الله تعالى الملائكة تسجد له ، ولهذا فإن العقل أساس النظر الديني ، ولا شيء يستعصي عليه سوى ذات الله وطبيعته والعالم الآخر ، ويستتبع هذا إشاعة العلم والمعرفة في المجتمع .

(٤) العودة إلى القرآن الكريم واعتباره كتاب هداية واستبعاد كل التفاسير وكل ما جاء به المفسرون من نسخ أو أسباب نزول ، إن الصياغة القرآنية فيها قوة الهداية والقرآن يؤتي أثره بالانطباع ويزداد بالتدبر .

(٥) السُنة يجب أن تضبط بضوابط القرآن ، وليس لها تأبيد القرآن .

(٦) اعتبار "الحكمة" أصلاً من أصول الإسلام .

(٧) اعتبار الزكاة فريضة مقدسة كالصلاة وتنظيمها بحيث تؤدي دور "الضمان الاجتماعي والتأمين" .

(٨) كل ما جاءت به الشريعة من أحكام عن الدنيويات ، وسواء كانت في القرآن أو السنة إنما أنزلت لعلة هي بصفة عامة العدل والمصلحة ، فإذا حدث أن جعل التطور الحكم لا يحقق العلة (أي العدل والمصلحة) عدلنا في الحكم بما يحقق الغاية ، وهو ما اهتدى إليه عمر بن الخطاب في اجتهاداته المعروفة .

(٩) مجاوزة السلفية وعدم الالتزام بها ، فالسلفية هي الماضوية ولا نستطيع أن نعيش حاضرنا في ماضينا .

(١٠) استبعاد فكرة هيمنة الإسلام على كل شيء ، أن الإسلام على أهميته القصوى ليس إلا بُعدًا واحدًا من أبعاد متعددة للحقيقة كالعلوم والفنون والآداب والفلسفة التي تنطلق كل من منطلقها الخاص ، وتقدم عطاءها الذي وإن اختلف عن عطاء الدين ، فإنه لا يزاحمه ، كما لا يستبعده لأنه من حرث الدنيا ، وقد أخَّلت رؤية الأسلاف للإسلام على كل مجالات الحياة بالتوازن ما بين الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ، وفوتت على المجتمع الإسلامي خيرًا كثيرًا ، واستبعدت الكثير من عناصر الجمال والعاطفة والعلم والمعرفة .

(١١) حرية الفكر والاعتقاد مطلقة والعلاقة ما بين الأديان هي علاقة تعايش .

(١٢) تحرير المرأة من الدونية التي جاءت بها بضعة أحاديث ضعيفة أو موضوعة ، وتقرير مساواتها بالرجل .

(١٣) الأخذ بالديمقراطية والتنمية ، ولكن عبر إسلام الإنسان .

الإسلام يشرق على الغرب

في الوقت الذي يطارد الغرب الإسلام ، ويتهمه بالتخلف والإرهاب ، فإن دعوة الإحياء الإسلامي تؤمن إيماناً لا يخالجه شك ، أن مفهوم هذه الدعوة للإسلام هو وحده الذي يمكن أن ينقذ الغرب من أزمته الروحية ، وما تحدثه الحضارة الفردية العنصرية الاستهلاكية من الاغتراب والكآبة .

إن الإيمان بالله - كما عرضته دعوة الإحياء الإسلامي - هو وحده الذي يملك القوة على إشاعة السلام الروحي والرضا النفسي ، ويمكن أن يوقف الشطط الذي يهدد البشرية بالانتحار النووي .

ملحق ـ ١ ـ

مكتبة مراجع دعوة الإحياء الإسلامي

من حق هذه الدعوة أن تفخر بأن لديها ما لم يتيسر لغيرها من الدعوات من الكتب والمراجع التي كتبها رائد الدعوة بحيث لا يحتاج من يريد معرفتها إلى الرجوع إلى مراجع بأقلام آخرين ، وهناك قرابة خمسين كتابًا كل واحد يعالج ناحية معينة من نواحي الدعوة ، وهذا كما ذكرنا ما لم يتوفر لأي دعـوة أو داعية ، فجمال الأفغاني مثلاً لم يكتب سوى رسالته في الرد على الدهريين ، ولم يكتب الإمام محمد عبده سوى رسالة التوحيد وكتابات أخرى بصرف النظر عن دوره في إطار السلفية ، وترك السيد رشيد رضا كتبًا كثيرة ولكنها كلها تدخل في إطار السلفية ولم يترك إقبال سوى "إعادة بناء التفكير الديني" ، أما علي شريعتي فكتبه كلها في إطار الفكر الشيعي الذي لم يستطع أن يتحرر منه واضطر إلى أن يقدم ما يشبه الاعتراف بإيمانه بكل مقدسات وثوابت المذهب الأثنى عشري رغم مقاومته للشطط الذي جاء به التصوف الصفوي ، وكان لأبي الحسن الندوي كتب عديدة ولكنها كلها في إطار السلفية وعن موضوعات عامة وهو أيضًا ما يقال عن عبد الحميد بن باديس ، أما ما كتبه شكيب أرسلان فمعظمه من التطورات السياسية .

لقد تميزت عدو الإحياء الإسلامي بعدد ضخم من الكتب كلها تصب في الدعوة وتكتشف الجوانب المختلفة لها ، وذلك لما أشرنا إليه من تفرغ الداعية لها منذ شبابه للتأليف مضحيًا في هذا السبيل بالمناصب والشهرة والجاه ..الخ .

فهناك أربعة كتب عن القرآن الكريم ، وثمانية تقريبًا عن السُنة ، وستة كتب عن الدعوات والهيئات الإسلامية ، وأربعة كتب عن المرأة ، وإحدى عشر كتابًا عن الحكم والسياسة ، وأثنى عشر كتابًا عن موضوعات أخرى ، وعشرة كتب عن الحركة النقابية .

ولكن يلحظ في هذه المراجع أمران :

الأول : تكرار بعض المعاني في أكثر من كتاب ، وهذا يعود إلى أن كل هذه المكتبة هي عن دعوة الإحياء ، أي أنها عن موضوع واحد متداخل فالسُنة مثلاً ترتبط بالقرآن والفقهاء يرتبطون بالسُنة ، والكلام عن الفقهاء لابد أن يرتبط بالعصر الذي عاشوا فيه .. الخ ، فمن العسير الفصل تمامًا ، كما إننا لا نفترض أن القارئ العادي سيقرأ كل كتبنا فيضيق بالتكرار في حين أننا حريصون على إيضاح ـ على الأقل ـ معالم الدعوة في كل كتاب ، والتكرار بعد ، مألوف في حديث الدعوات ، وأكبر دليل على هذا هو القرآن ، والفكرة في هذا أن التكرار يعمل على تركيز الفكرة ويعمقها ولا يدعها للمرة الواحدة أو الإشارة العابرة .

الثاني : أن مراجع هذه الكتب طبقاً لظهورها الزمني تتضمن نوعًا من الاختلاف في بعض الأحكام ، وهذا يعود إلى تطور فكر الكاتب الذي يظل يفكر ليل نهار في موضوعاته فيكشف له هذا عن نقاط خافية أو عن نهايات لم يصل إليها .. الخ ، كما أن طول المدة التي سلختها الدعوة قبل أن تعلن عن نفسها أدى إلى نوع من التطوير ويتضح هذا جليًا في فكرته عن الحكم ، فقد بدأ بوضع الضمانات التي تحول دون فساده ، ولكنه في النهاية كما يظهر ذلك في آخر كتبه عن الحكم وهو كتاب "الإسلام دين وأمة وليس دينًا ودولة" انتهى باستبعاد الدولة الإسلامية لأنه كان قد توصل إلى مبدأ "السلطة تفسد الأيدلوجيا أو العقيدة" ، ولأن تفكيره الطويل في دولة المدينة التي أقامها الرسول وما تلاها من خلافة راشدة انتهى بها إلى أنها كانت استثناء ، فضلاً عن أنها لم تكن دولة بالشكل الاصطلاحي ، وقد تأكد له أن كل التصورات عن دولة إسلامية لابد وأن تجلب من المفاسد أكثر مما استهدفت تحقيقه من مصالح ، كما يلحظ أيضًا هذا التطور في مجالات أخرى كالشريعة مثلاً التي انتهى إلى أنها كلها ، سواء جاءت في القرآن أو السُنة تخضع لإعادة النظر للتثبيت من تحقيقها للحكمة التي وضعت لها ، فإذا كانت دواعي التطور قد حالت دون ذلك فيجب

تعديلها بما يحقق هذه الحكمة ، وهذه الحكمة ـ بصفة عامة ـ وبالنسبة للشريعة هي العدل ، كذلك فإنه في آخر كتاباته أحل "الحكمة" كمصدر ثالث للشريعة ، في حين أنه في الجزء الثالث من "نحو فقه جديد" كان قد اعتمد "العرف" ، فقد رأى أن الحكمة هي التي تحقق الكمال المطلوب ، كما يوضح ذلك مقارنة ما أوردناه هنا عن موقفنا من بعض القضايا بما كتب في استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الـ ٢١ إذ يلحظ الاختلاف رغم أن الموضوع واحد ، وهذا يعود إلى أن ما كتب في استراتيجية الدعوة كان عام ٢٠٠٠ ، أي في مستهل الإعلان عن الدعوة والاختلاف ما بين الاثنين يمثل تطور بضعة سنوات حافلة .

والمؤلف يرى في هذا علامة صحة ودليل على دوام استشراف الحقيقة ودوام تفكيره فيها .

ومن أهم مراجع وكتب دعوة الإحياء :

(أ) **عن القرآن الكريم** :

(١) تفسير القرآن الكريم بين القدامي والمحدثين (٢٤٠ صفحة) .

(٢) تثوير القرآن (١٢٠ صفحة) .

(٣) تفنيد دعوى النسخ في القرآن الكريم (١٠٢ صفحة) .

(٤) العودة إلى القرآن (١١٨ صفحة) .

(ب) **في الفقه والسُـنة** :

(١) نحو فقه جديد "ثلاثة أجزاء" (٧٥٠ صفحة) . الجزء الأول عن "منطلقات ومفاهيم وفهم القرآن الكريم" (٢٠ صفحة) ، الجزء الثاني عن "السنة ودورها في الفقه الجديد" (٢٧٩ صفحة) ، الجزء الثالث عن "منطلقات ومفاهيم ثم أصول الشريعة" (٣١٢ صفحة) .

(٢) قضية الفقه الجديد ، وهو اختصار للأجزاء الثلاثة السابقة (١٨٠ صفحة) .

(٣) تفسير حديث من رأى منكم منكرًا فليغيره (١٣٦ صفحة) .

(٤) الجمع بين الصلاتين في الحضر (١٣٦ صفحة) .

(٥) الإيمان بالله في القرآن ولدي السلف والمحدثين (١٢٨ صفحة) .

(٦) لا حرج "قضية التيسير في الإسلام" (١٠٢ صفحة) .

(٧) الجهاد (١٢٨ صفحة) .

(٨) كلا ثم كلا .. (كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير) (٢٦٣ صفحة) .

(٩) الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٨١ صفحة) .

(١٠) هل يمكن تطبيق العقيدة (٧٧ صفحة) .

(١١) السيد رشيد رضا ، رائد السفلية الحديثة (١٧٥ صفحة) .

(حـ) قضايا إسلامية هامة :

(١) مطلبنا الأول هو الحرية (١٠٤ صفحة) .

(٢) استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن ٢١ (١٥٩ صفحة) .

(٣) الإسلام وحرية الفكر (٢٠٨ صفحة) .

(٤) الإسلام والعقلانية (٢٤٨ صفحة) .

(٥) بيان رمضان (١٨٨ صفحة) .

(٦) الإسلام والحركة النقابية (١٦٠ صفحة) .

(٧) روح الإسلام (١٨٩ صفحة) .

(٨) تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية (٢٦٩ صفحة) .

(٩) التعددية في مجتمع إسلامي (١١٠ صفحة) .

(١٠) الربا (٢٥٦ صفحة) .

(١١) تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي (٨٨ صفحة) .

(١٢) تفنيد دعوى حد الردة .

<u>(د) الحكم والسياسة</u> :

(١) الإسلام دين وأمة وليس دينًا ودولة (٤٠٠ صفحة) .

(٢) خمسة معايير لمصداقية الحكم الإسلامي (١٣٦ صفحة) .

(٣) مسئولية فشل الدولة الإسلامية ، وبحوث أخرى (١٦٤ صفحة).

(٤) مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم (١٧٦ صفحة) .

(٥) البرنامج الإسلامي (١٢٨ صفحة) .

(٦) موقفنا من العلمانية والقومية والاشتراكية (١٢٨ صفحة) .

(٧) نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي (١٤٣ صفحة)

(٨) ديمقراطية جديدة (٢٣٥ صفحة) .

(٩) الإسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) .

(١٠) وجوه الإئتلاف والاختلاف بين الإسلام والرأسمالية والاشتراكية (١٢٠ صفحة) .

<u>(هـ) الدعوات الإسلامية</u> :

(١) الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامي (١٨٤ صفحة) .

(٢) رسالة إلى الدعوات الإسلامية (٣١٢ صفحة) .

(٣) الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها (٢٧٦ صفحة) .

(٤) ما بعد الإخوان المسلمين (٢٠٨ صفحة) .

(٥) خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه (٢٠٨ صفحة) .

(و) المـــــــرأة :

(١) المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء (٢٠٨ صفحة)

(٢) الحجاب (٢١٩) صفحة) .

(٣) ختان البنات ليس سُنة ولا مكرمة ولكن جريمة (١٢٠ صفحة) .

(٤) جواز إمامة المرأة الرجال (٩٦ صفحة) .

(ز) الكتب النقابية :

تعطي دعوة الإحياء الإسلامي الحركة النقابية أهمية خاصة باعتبارها نمطًا ناجحًا من العمل التطوعي والتلقائي للنهضة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لحياة الجماهير وعامة الناس .

وفيما يلي بعض الكتب النقابية :

(١) الحرية النقابية "ثلاثة أجزاء" (٧٠٠ صفحة) .

(٢) تاريخ الحركة العمالية المصرية عبر مائة عام (٧٠٠ صفحة) .

(٣) نشأة الحركة النقابية وتطورها (٢٤٠ صفحة) .

(٤) الإسلام والحركة النقابية وتطورها (١٦٠ صفحة) .

(٥) الحركة العمالية حركة إنسانية (١٣٢ صفحة) .

(٦) الحركة النقابية الدولية (١٩٩ صفحة) .

(٧) المعارضة العمالية في عهد لينين (١٦٤ صفحة) .

(٨) الأزمة النقابية (٢٠٧ صفحة) .

(٩) حق الإضراب (١٢٠ صفحة) .

(١٠) لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية عقيدة (١١٣ صفحة) .

(ح) كتب أخرى :

(١) إخواني الأقباط (٣٠١ صفحة) .

(٢) الرد على البابا (١٧١ صفحة) .

(٣) المختـــــار من البحوث والمقــالات (ج١) (١٧٥ صفحة) ، (ج٢) (٢٢٠ صفحة) .

(٤) صفحة مطوية في الإصلاح الاجتماعي "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم" (١٤١ صفحة) .

أمامنا إذا سمحت مكارم الله تعالى ــ وهي أعظم مما نحتسب ــ بالعمر ، والقوة الكتب الآتية :

(١) الولاء والبراء .. قضية الآخر .

(٢) شاهد على العصر :

الجزء الأول : مصر الليبرالية (١٩٢٣ ـ ١٩٥٢) .

الجزء الثاني : الحقبة الناصرية (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠) .

الجزر الثالث : آخر فراعنة مصر (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) .

الجزء الرابع : وانتهى حكم العسكر .

(٣) نوع جديد من الإدارة .. إدارة المنظمات غير الحكومية N.G.O.

(٤) حسن البنا الذي لا يعرفه الإخوان المسلمون .

(٥) اجتهادات فقهية .

(٦) نظرية الدولة بين الإسلام والديمقراطية مع التركيز على التنمية.

(٧) العمال : الجيش المدني للوطن .

دعوة الإحياء الإسلامي

هي دعــوة المستقبل ، فلا داعٍ للمماحكة أو التردد وإهدار الوقت .

تعرف عليها .. وآمن بها

تكن صاحبها .

ملحق ـ ٢ ـ

"إيماننا"[١]

---

(١)

نؤمن بالله .إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية ، وما ينبثق عنها من قيم ، وبدونه يصبح الوجود عبثا ، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيوانا متطوراً أو " سوبر حيوان".

والإيمان بالله الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى ، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغنى شيئاً ، بل قد يضر .

(٢)

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية ، ويجب جعلهم المثل في القيادة، واطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك .. الخ ، وما

---

(١) كتب إيماننا في عام ١٩٩٥ كبيان لمؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي" وفى ٣ ديسمبر سنة ١٩٩٧ نشر الأستاذ لطفي الخولي نص البيان ومذكرة عن المؤسسة كاملاً فى صفحة الرأى (ص٢٥) من جريدة الأهرام تحت عنوان إيماننا: الإعلاء الحقيقى للدين بحماية الإنسان وأعمال العقل ورفض الإرهاب والتكفير وصدره بمقدمه جاء فيها: جاءنا البيان التالى من مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي .. وذلك قبل وقت قصير من وفاة السيدة فوزية أخيرا، وينشر "الحوار القومي" نص البيان لأهميته على المستويين الفكري والثقافي ، ليس فقط من زاوية الأسس التي يقوم عليها من حيث أن الإعلاء الحقيقي للدين مرتبط بحماية كرامة الإنسان وحقه في المعرفة وإعمال العقل وإنما أيضا لربط ذلك بحرية الفكر كأساس لأي تقدم ينبذ المصادرة والإرهاب والتكفير، وبالعدل كأسس للعمل والعلاقات ، وبالتنمية كمعركة حضارية لمواجهة التخلف وبرفض دعاوى التكفير والردة .

رحم الله الأستاذ لطفي الخولي : إن صدأ العقول حال دون أن تظفر محاولته بالصدى المطلوب ، ولم نجر في البيان منذ أن كتب سنة ١٩٩٥ سوى تعديلات طفيفة .

وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية .

والأديان هي الثورات التي حررت للجماهير، ووضعت أسس حضارة تقوم على الحرية ، والخير ، والعدل والمعرفة .

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول ، على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى ، لأن الدين أصلا واحد، ولكن الشرائع متعددة ، ونحن نؤمن بالرسل جميعاً ، وان الله تعالى أراد التعدد والتنوع (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة.

(٣)

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي ، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب ، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوربي فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له ، وفي الوقت نفسه ، فإن هذا لا يحول دون أن يكون للفلسفة والآداب والفنون وجود بجانب الدين ولا يمنع من تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن الله تعالى هو الذي أضفاها على بنى آدم جميعا، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي لكل الجنس البشرى من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء .. الخ ، وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له .

ولما كان الإسلام قد جاوز ـ كما ونوعا ـ الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات .

(٤)

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقيه الكائنات ، والتي تنقذه من الخرافة ، فيفترض أن تكون

المعرفة هدفا رئيسيا للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل ، وما يثمره من علم وحكمة ويجب على كل نظام إسـلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة ، ويفتح النوافذ عليها ، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر .

إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية .

(٥)

نؤمن بحرية الفكر والتعبير، وأنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شيء ، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان ، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة ، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق ، وفي القرآن الكريم قرابة مائـة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة ، وأن مردها إلى الله نفسه ، وأنها قضية شخصية لا دخـل للنظام العام فيها مثل : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ، ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.... ﴾ .

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع ، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سليمة .

ونحن نرفض تماما دعاوى التكفير والعقوبة على الردة ، ونكلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة ، كما قرر القرآن ذلك وطبقتـه ممارسات الرسول .

أما ما قد ينشأ من أخطـار ، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه .

(٦)

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرؤوسين ، الرأسماليين والعمال ، الرجال والنساء .. الخ ، لأن كل ما

يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجوز إعطاء فئات ، سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى .إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به .

وقد يتطلب تحقيق هذا إعادة النظر في كل نصوص الشريعة الخاصة بالدنيويات ، في ضوء تحقيقها للعدل ، لأن التطورات قد تنفى العلة التي من أجلها سنت بعض الأحكام فينتفي الحكم كما قد تتطلب تعديلها ، ولا يعد هذا انتهاكا لها ، ولكن تأكيد قيامها لما سنت من أجله – وهو العدل.

(٧)

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها ، ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية ، تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها ، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى .

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوربية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط .

وبالمثل فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات في مكاتبهم ستتسم ببيروقراطية ولن يكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية وقد تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة وستكون تنمية محكوم عليها بالفشل .

(٨)

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست صورة المسلم أيام

الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية .ثم جاء الملك العضوض، وتدهورت الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد الخ ..وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقي عليها المؤسسة الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور ..أو الإبقاء على المصالح المكتسبة.

ونحن نرفض هذه الصورة ونعمل لإحياء إسلامي

(٩)

لا يمكن تحقيق أي إحيـاء إلا بالعودة رأسا إلى القـرآن الكريم ، وإطراح التفاسير وضبط السنة بضوابط القرآن وعدم التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات ومذهبيات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس ، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام .

لقد كان الإسلام أصلا دعوة حضارية وثورة جماهيرية لإنقـاذ الناس من الظلمات إلى النور، وإحلال "الكتاب والميزان" ، أي المعرفة والعـدل محل الجهالة والظلم والطبقية وإشاعة قيم الخيـر ، والعـدل ، والحرية ، والعلم .. الخ التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر جسم الإسلام والاقتصار عليها ــ دون القيم ــ هو احتفال بجسم لا روح فيه .

بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي ، فليس المهم الآن تفسير القرآن ، ولكن تثوير القرآن ، وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة ، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن ، وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العالم القديم ويضعوا أسس الحضارة الإلهية ــ النبوية ــ الإنسانية .

(١٠)

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البدائه ، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة . تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام .

إن التطور الاجتماعي للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم .فضلا عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان .

إن الإسلام لا يحتكر ـ وحده ـ الحكمة ، ولكنه ينشدها أنى وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات ، كما يقدم خبراته ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ ، من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودا من قبل باعتباره النمط الأمثل ، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب ، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار كل هذا يخالف جوهر الإسلام وعالميته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان، كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان في الحضارة العصرية، لأن خيطا وثيقا يربطه بالله والرسول يبقى له قدرا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبان .

دعوة الإحياء الإسلامي

آمنا بالقرآن ؛ لأننا وجدنا فيه ما نريد من تكريم الإنسان ، والحرية ، والعدالة ، والمساواة .. الخ .

وآمنا بالرسول لأننا وجدنا في شخصه القيادة المثلى .